حجر الذاكرة

بعض من جحيم السجون السورية

مذكرات

بسام يوسف

حجر الذاكرة

بعض من جحيم السجون السورية

بسام يوسف

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

الفهرسة في أثناء النشر – مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر
حجر الذاكرة؛ بعض من جحيم السجون السورية / بسام يوسف
128 ص؛ 21 سم.
يشتمل على فهرس عام.

Printed Book ISBN: 978-605-7964-37-3
E-Book ISBN: 978-605-7964-36-6

العنوان بالإنكليزية
The Memory Stone, Some from the Syrian Prisons Inferno
Author: Bassam Yussef

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات معتمدة لدى
مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

هاتف
باريس، فرنسا : 0033 6 25 77 62 61
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871

البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

© جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر
الطبعة الأولى
إسطنبول، تركيا - كانون الأول / ديسمبر 2018

المحتويات

إهداء 11
هذا النص 13
حجر الذاكرة وماؤها 15
رائحة الحنين 22
من الذي كتب؟ 27
أصابع لا تكفي 30
25 – 11 – 1987 32
في فرع فلسطين 39
عبد الله 42
رؤوس متلاصقة 48
تحقيق 1 50
تحقيق 2 52
محاولة انتحار 53
عسكر 54
في الطريق الى سجن صيدنايا 57
قصص سجن صيدنايا 59
مصطلحات سجنية 59
قصعات 63

الصورة..... 67
جنون القراءة 69
المساعد زهير وعضو البرلمان 70
المسجون المحمول 74
سرياليات 1 76
تفاصيل صباحية..... 77
أبو حلب 81
الوليـمـة 84
في حضرة النبيذ 87
عطاء من أعطيات السيد الرئيس 89
سرياليات 2 92
فـرمـان 93
انتظار 94
ناطف 97
الباشا..... 99
خيبة 1 100
خيبة 2 103
شرح المفردات..... 104
كنت أمينًا للمكتبة 105
سرياليات 3 108

سرياليات 4 109
التهمة حلم 111
حسين مروة ومهدي عامل 112
أستاذ الخط 113
فجيعة 115
إخلاء سبيل 116
25 – 11 – 2014 121
الغلاف الأخير 125

إهداء

إلى روح أمي التي عجّل قهرها برحيلها، فرحلت وكنت في سجنهم ما أزال.

إلى كل الأمهات اللواتي انتظرن عودة أبنائهن من سجون عائلة الأسد.

إلى أم كل شهيد قتلته هذه العصابة، تعذيبًا أو قتلًا أو حنينًا.

إليهن كلهن.

هذا النص

ليس رواية أو سيرة ذاتيّة أو تأريخًا لزمن ما.

إنه، باختصار شديد، أنين روح مواطن سوري يحتضر.

إنه أشبه برثاء شخص لنفسه، قبل أن يهيل عليها التراب.

حجر الذاكرة وماؤها

لن أتحدث، كما يفترض أي حديث، عن السجن: التعذيب والجوع والمرض والموت، وكل تلك التفاصيل التي تجعل من السجون السورية واحدةً من أبشع السجون التي عرفتها البشرية، لكنني سأتحدث عن وجه آخر، سأتحدث عن الوجه الذي لا نراه إلا في سجون الأنظمة المنغمسة انغماسًا كليًا في وحشيتها هناك، حيث تنتفي الحقوق كلها التي أقرّتها القوانين والأعراف الدولية، فيصبح السجن مكانًا للترويع والانتقام والقتل أو الموت البطيء.

سأتحدث عن وجه السجن الآخر، ذاك الوجه الذي لا يمكن الكتابة أن تقوله، ولا الحديث أن يدنيه، فيجعلانه مفهومًا إلى حد يمكن القول عنده إنه قد صار واضحًا. إنه الوجه الذي لايمكن إدراك جوهره، إلا بمعاناته عبر تجربته؛ تلك التجربة التي كلما امتدّت كشفت عن وجوه وألسنة مردومة، ولكن أي تجربة أو معرفة تستحقان ولوج الجحيم من أجلهما؟.

كتب دانتي على بوابة جحيمه: "عن كل أمل تخلوا أيها الداخلون إلى هنا"، وعلى الرغم من أن كل ما كتبه كان تخييلًا، فإن السجون السورية تغنيك عن أي تخييل؛ لأن ما تحتاج إليه وافر وفرةً خانقة، وما عليك سوى أن تلملم طاقاتك كلها وتشحذها، لوصف الأقل من القليل من واقع كثير.

سأحاول ما أستطيع، لكي أقارب بعضًا من بعض ذاك الجحيم، ولأن ما لديّ ما هو إلا ذاكرة فقط، سأتحدث عن الذاكرة والسجن،

أولًا؛ السجن، أي سجن، في مطلق حالاته هو شرط لاإنساني، لكن ربما يكمن أحد أهم وجوهه اللاإنسانية في إرغامك بوصفك مسجونا على تقطير حياة افتراضية على موقد ذاكرة حجرية، ودفعك رغم أنفك إلى عيش متخيل في مكان شحيح مصمت. بتعبير آخر: عند حرمانك من أوجه الحياة كلها، فلا شيء يسند حياتك الهاربة، إلا حجر الذاكرة.

في السجن، في ذلك العدم، حيث أنت رهين الغياب، حيث أنت مع كل ما تختزن من مشاعر وأحلام ورغبات وتناقضات، حيث أنت بتفاصيلك كلها وكلِيّتك خارج التحقق. نعم؛ أنت في النفي الذي لا يصير بل أنت في العدم الذي لا حضور في حضرته.

ليس السجن حياة لتتنفسها، ولا موتًا ليفترس توقك إلى الحياة، إنه بتكثيف شديد: المنصة التي أصعدوك إليها عنوة، ليلفوا حبل مشنقتك حول عنقك. السجن كاللحظات التي تسبق انزلاقك إلى هوة الموت، حينما كل ما يربطك بالحياة هو رؤوس أصابع قدميك التي تسند جسدك المعلّق، فتمنعه من الانزلاق على حبل موتك المشدود على عنقك.

هكذا إذًا، على عنقك حبل موتك وفي رؤوس أصابع قدميك بقايا حياة، وأنت بينهما مشدود كوتر لا تعرف متى ينطلق سهمه، لأنك بين موت وحياة، ولأنك عاجزٌ ومقيّد ومنفيّ ومنسيّ، فإن قوة غامضة تتفجّر فيك، فتدفعك إلى أن تتشبث بثبات رؤوس أصابعك على خشبة مقصلتك كي لا تهوي.

في هذا التوتر المشدود حتى أقصاه، لا لثوان أو دقائق ولا لأيام أو أشهر، بل لسنوات طويلات، تصبح الذاكرة هي المصدر الوحيد

لتجديد طاقة التحمّل لديك، فتصبح سلاحك الوحيد، لكي تقاوم هذا الجحيم الذي يحاصرك كحبل مشنقة، ولتصبح ملاذك الذي لا ملاذ سواه، لكي تعيد صياغة بقايا روحك التي تتهشم في كل يوم.

في السجن لا حياة، فأنت مجبر على اختراعها، بل أنت مطالب بأن تمنح ذاكرتك ما يمكنّها اختراع الحياة أيضًا. نعم؛ في السجن نخترع الحياة ونصوغها، كما تستطيع ذاكرتنا أن تفعل، نخترع شخوصًا ونحبهم أو نكرههم وربما نقتلهم، ونخترع مطارح ومعارك ننتصر فيها أو نهزم، ونخترع نساءً لكي نبكي حنينًا إليهن، فنضاجعهن كما لو أننا نصلي، ونكتئب إن هجرننا، وربما نحاول الانتحار.

في السجن، من لا يتقن اختراع الحياة، سيسحبه اليأس إلى لجّة الموت. في السجن، في هذا المضيق الذي يفصل بين موت وحياة، نتعلق بذاكرتنا وكأنها طوق نجاة. وحدهم من سُجنوا ومن يسجنون، لآماد طويلة وفي شروط شديدة القسوة والبشاعة والحرمان، كما هي حال السجون السورية، يدركون جيدًا معنى الذاكرة والحاجة إليها وحقيقتها. السنوات التي تتناسخ تترى، تجعل من الذاكرة ذاكرةً عطشى، فتحيلها ذاكرةً يشققها اليبس عميقًا، وذاكرةً تجهد لصون آخر عصارة فيها، ثم كي لا تموت فنموت نحن، نلهث وراء ما يمكن أن يسقيها، ولو قليلًا.

لا أدري، إن كان علماء النفس أو علماء السلوك الاجتماعي أو علماء الفيزيولوجيا قد تحدثوا عن ذاكرة جمعية، ولكنني متيقن من أن الذاكرة تستعير وتُستعار وتختلط وتمتزج وتنقسم وتنمو وتصغر، وإلا فكيف يمكننا أن نفسر ما حدث معنا في السجن، وما يحدث مع أي مسجون في سجنه؟ هل يتسع وقتكم لأوضح فكرتي؟ إذًا، دعوني أبدأ من البداية.

فجأة وكما في حكايا ألف ليلة وليلة، يخطفنا جنّي، يخطفنا من أُلفة حياتنا اليومية ويطير بنا، ثم لأنه جنّي شرّير، ينقلنا خلال محطات متخمة بالعنف والقتل، حتى لا نكاد نعرف فيها من نحن، وأين نحن، وإلى أين، ليرمي بنا في النهاية في عالم آخر، في عالم شديد الاختلاف، عالم لاشيء فيه، في عالم نفتقد فيه كل شيء، بما في ذلك أصوات الحياة وحضور الضوء ولون السماء.

في المرحلة الأولى، نتحسس أجسادنا وأرواحنا وذاكراتنا ووجوهنا، وحتى جدران القبر الذي رُمينا فيه، وعندما نكتشف أننا في اللاحياة، نسرع إلى ذاكرات نستجديها ونتوسل إليها لكي تهبنا ما فقدناه. يا إلهي! كيف تتوهج الذاكرة في بدايات السجن؟ كيف تتوهج بتلك الشدة؟ كيف أنّ لوهجها ذلك الألم الحارق والألم الممض، فنبكي ونصرخ ونبدأ دورانا اليائس داخل قوقعة السجن المطبقة تلك؟.

في البدايات، لا يمكنك أن تحتمل زلزلات هذه الذاكرة وتدفقها مثل موجات تسونامي، وأنت وحيد، فيتوجب عليك أن تقولها لكي يخفّ اندفاعها وتهدأ، وأن تنتقي أشخاصًا لتقولها لهم، لأنها ذاكرتك الحميمة، فإنك تهمس لهم، بنبرة دافئة متوسلة، بألا يقولوا ما في ذاكرتك لغيرهم، لأنها أغلى ما تملك، فإنك مجبر على افتراض أن من تشاركهم في ذاكرتك هم محل ثقتك العميقة، عبر بوابة هذه الثقة التي ألبستهم إياها مرغمين، تبدأ أمواج ذاكرتك بالانتقال إليهم.

خارج السجن في حياتنا العادية، نحاول أن نملأ ذاكرتنا بالأشياء التي نصنفها على أنها مهمة: الحوادث الكبرى والمناسبات الأهم. أما في السجن، فإن ذاكرة التفاصيل هي الذاكرة دائمة الحضور، وهي الذاكرة الأشد إيلامًا. في السجن، تغادرك الأشياء الكبيرة أو إنها

تصبح بلا أهمية، وكل ما كنت تتجاوزه بلا انتباه في حياتك العادية، يصبح ضجيج ذاكرتك الذي لا يهدأ.

ستراقب بغبطة طفلك الذي يخطو خطواته الأولى، وستسرع متلهفًا إلى الإمساك به عندما يتعثر. لكنك، عندما ينظر إليك من حولك مستغربين نهوضك المفاجئ وصرختك الخائفة أو متعاطفين، ستتذكر أنك في السجن، وستعتذر، قائلًا: اعذروني، كنت أحاول التقاط ابني كي لا يسقط.

ستعاود الجلوس في مكانك الضيق. ستعاود صراخك المتلهف مرة أخرى، ثم بعد قليل أو كثير وبعد أن تتيقن من أن لهفتك كلها ما هي إلا تخييل محض، ستبكي، ستشم رائحة الطعام الذي تحب، وربما تنهض لتتناول شيء لتضعه على الطاولة، وتمد يديك إلى الهواء في الهواء، ومرة أخرى ستكتشف أنك في السجن، وستصفعك نظرات استنكار من حولك أو نظرات تعاطفهم، ستشم رائحة عطر امرأة كنت قد أحببتها، وتمد يدك إلى ستائر نوافذ غرفتك لتسحبها، لكي يدخل قليل من الهواء والضوء، وستسمع بوضوح رنين جرس باب بيتك، وتسمع صراخ إخوتك.

ستمشي طويلًا في زواريب حارتك الضيقة وتلقي التحية على من تراه، وتسترق نظرة من امرأة تمر بك بكل سطوتها؛ تاركةً خلفها غمامة من عطر ودهشة، وسيرى من يجلس إلى جانبك كيف أغمضت عينيك ورفعت رأسك إلى الأعلى وتنفست عميقًا، لتملأ كل خلاياك بعطرها. لا بد أنك ستمر ببائع الفلافل، وتأكل القرص الساخن الذي يناولك إياه، قبل أن يسألك: ماذا تريد أن أضع في سندويشتك؟ وستستعيد مئات المرات تلك الشهقة؛ شهقة خوف الصَبيَّة، حين باغتتكما أمك وأنت تقبلها.

في السجن، ستعيد نبش ذاكرتك، ألف مرة بعد ألف مرة، كي لا تموت. في السجن، لا تحيا الذاكرة إن لم تقل ما فيها، وأنت مجبر على قوله، كي لا تبقى معلقة على حافة النسيان والموت. في الحياة العادية، يمكنك ألا تقول ما في ذاكرتك، وربما أن تحاول نسيانها؛ لأن الحياة متاحة، أما في السجن، فإن الأمر مختلف تمام الاختلاف.

إذًا، ستمنح أحدًا ما ثقتك أولًا، وستشاركه ذاكرتك لكي تحميها فتحميك، وستختار ما تعده مناسبًا للبوح، فثمة في البدايات ما هو شديد الخصوصية، فلا يجوز أن يباح به، لكن بوابة الثقة تتسع، وبوابة الغياب تتسع، وبوابة الحاجة تتسع، وما كنت تعده شديد الخصوصية يبدأ بالتسلل إلى دائرة البوح. هكذا، تضخ ذاكرتك ضخًا لا بد منه في أيام موتك البطيء.

هل يستطيع أحد منكم أن يتخيل كيف نكتشف بعد مرور سنين أننا استنفدنا كل شيء، وتحدثنا إلى الجميع عبر بوابة الثقة التي افترضناها، بتفاصيل ذاكراتنا كلها، بما فيها تلك التي كنا قد صنفناها على أنها أشد تفاصيلنا خصوصيةً، إضافة إلى أسرارنا وفضائحنا التي لايجوز أن تُشاع، مهما كانت الحال؟.

ليس هذا ما يبعث على البكاء أو الجنون أو ما هو أكثر من ذلك بكثير، إن ما يبعث على ذلك كله وأكثر هو أننا سنكتشف، حين لا يعود أي معنى للاكتشاف، أننا لم نعد أصحاب ذاكرات خاصة، وأن تلك الذاكرة التي كانت فردية وخاصة قد أصبحت مشاعًا، وأننا قد امتلكنا ذاكرات الآخرين التي أصبحت جزءًا حميمًا مكوّنًا في ذاكراتنا.

هكذا، بعد سنوات طويلة من السجن والعيش على حافة الموت، نجد أنفسنا أننا قد صرنا بذاكرة واحدة، فيروي أي منا ما في ذاكرة الآخرين كما لو أنها ذاكرته، ويروي حوادث حياتهم كما لو أنها تفاصيل حياته. أن نروي حوادث حياة الآخرين على أنها حوادث حياتنا، فإن هذا ليس كذبًا، كما كنا نتهم بعضنا بعضًا في السجن، إذ كيف يكذب من لا يعرف كيف يفصل ذاكرته عن ذاكرة الآخرين؟.

ماذا كان يمكننا أن نفعل، إن كان كل ما لدينا، من ذاكرة وأحلام وأشخاص وفرح وحزن، قد سكبناه في أتون ذاك الجحيم الذي كان يبتلعنا؟ هل يقدر أحد ما أن يعيد إلى كل منا ذاكرته الخاصة؟ هل يمكن لأحد، أي أحد، أن يفصل أحلامنا وضحكاتنا وصرخاتنا وقهرنا وبكاءنا؟ أنا لا أعرف حقًا، ولكنني أظن الأمر أبعد من المستحيل بمستحيل آخر. إذًا، هل ستكون أوراقي هذه هي أوراقي وذاكرتي وحدي؟.

صدقوني، إن قلت إني ما كنت أدري والآن لا أدري، وما كنت أعرف والآن لا أعرف إن كنت أنا من حدثت له هذه التفاصيل أو إنها حدثت لأحد غيري. سأكتب عن ذاكرة ما؛ مفترضًا أنها ذاكرتي، أما إذا احتج الآخرون الذين شاركتهم العريّ في مساحة الثقة إياها، وإذا صرخوا بأن هذه الذاكرة هي ذاكراتهم فهم محقون، بالدرجة نفسها التي أدعي فيها أن هذه الذاكرة ما هي إلا ذاكرتي.

رائحة الحنين

لم تقرأ أمي في حياتها كتابًا، وما كان لها أن تقرأ، ولم تقرأ أمي في حياتها جريدة، وما كان لها أن تقرأ، ولم تقرأ أمي أي شيء عن أي شيء، وما كان بإمكانها أن تفعل؛ لأن أمي هي أمي، ولأن أمي ببساطة شديدة لم تذهب إلى المدرسة، ولم تتعلم القراءة والكتابة، وما كان من الممكن أن تذهب وأن تتعلم. لكنها، كمعظم الأمهات السوريات اللاتي عجنت الحياة أيامهن بالقهر والفقر، امتلكت بفطرتها ما لم أستطع امتلاكه أنا الذي أمضى عشرات آلاف الساعات في القراءة.

أنا أكبر أولاد أمي الذكور، ولذلك كان من البدهي أن يصبح اسمها أم بسام، وهكذا فقد أصبحت قدرها وقهرها منذ اللحظة التي صرخت فيها صرختي الأولى في هذا العالم الأصم. كان كل شيء، كما في معظم مناطق سورية، صعبًا وقاسيًا، وكانت أمي والأمهات هنّ من يلوّن حياتنا بقليل من الفرح. كان الفقر مرًّا، ومن أجل أن تصبح الحياة ممكنة، فقد كان على أمهاتنا أن يعجنّ تفاصيل حياتنا بشيء من أرواحهن.

ربما لا يعرف السوريون لماذا يشيخون وهم لا يستطيعون الانفكاك عن رائحة ثياب أمهاتهم، ولا يعرفون لماذا يقسمون صادقين أن مذاق ذلك الطعام البسيط المصنوع من مواد قليلة هو أطيب طعام في العالم، ولماذا يبحث كل منهم في أصوات المغنّيات عن صوت ما قد يكون أقرب الأصوات إلى صوت أمه، من بين أصوات الأمهات الحزينات، وهن يغنين في ليالي القهر الطويلة.

أمهاتنا لم يمتلكن مواهب خارقة في الطبخ، وما كان من الممكن أن يمتلكنها وينشغلن بها، لا، ولم تكن أصوات أغانيهن غناءً، تلك الأغاني التي كنا نغفو على إيقاعاتها الحزينة، وكأنها انسياب الزبد على الزبد، لا، ولم تكن الرقع التي يلصقنها فوق ثيابنا المهترئة جميلة ولا متقنة، لكنها أمي، ولكنهن أمهاتنا اللواتي كنّ دائمًا يضعن في كل ما يفعلنه شيئًا ما من أرواحهن، ومن لهفتهن وحنانهن وقهرهن وحزنهن. إن هذا ما كان يجعلنا نحتمل الحياة ويدفعنا إلى أن نستعيدها دائمًا، بحنين القطا الذي يدفع الدمع إلى العيون، فترقّ وتترقرق.

منذ أن استولى حافظ الأسد على السلطة في سورية، بعد انقلابه العسكري المشؤوم، أُضيف قهر آخر إلى تفاصيل حياة الأمهات السوريات. لقد كان الفقر على الرغم من قسوته رحيمًا، والجوع لم يكن متوحشًا إلى حد القتل، ووحده حافظ الأسد من أحال تفاصيل حياتنا كلها سوادًا بلا نهاية. لم تكن العقود التي حكمت فيها عائلة الأسد سورية عقودًا للأمان والاستقرار، كما يتداول من يريدون إخفاء الوجه الحقيقي لتلك المرحلة، إنها ببساطة شديدة سنوات طويلة من القتل والسجون والاختفاء والتشرد والنفي.

منذ اللحظة الأولى التي قرر فيها حافظ الأسد أن يقوم بانقلابه العسكري، قرر أيضًا أن يكون السجن أداة حكمه الأولى، وعندما ضاقت السجون أضاف سجونًا جديدة، وسجونًا وسجونًا، وعندما ضاقت السجون كلها وجد أن أفضل ما يمكن فعله هو أن يشرّد السوريين ويقتل المسجونين. في الثمانينيات من القرن الماضي بلغت الاستباحة أقصاها، بعد أن صمت العالم والسوريون معظمهم عن المجزرة التي ارتكبها حافظ الأسد في مدينة حماة، وفي مدن وقرى أخرى غيرها. بعد جريمة مجزرة حماة الفظيعة دخلت سورية في ليلها

الأشد حلكةً، وأصبح كل شيء بطعم القهر، والأيام باتت متخمة بالرعب والخوف.

في تلك المرحلة السوداء، اعتُقلت والآلاف خلال أشهر قليلة واختفينا. كان حافظ الأسد يومها قادرًا على أن يفتك بمن يريد، وهو مطمئن إلى أن أحدًا في العالم لن يسأله عن مصير أولئك الذين يختفون أو يقتلون. مر زمن طويل على اختفائنا القسري، وتنزلق الأيام والأشهر والسنوات، وتمضي، ولا أحد يعلم مصير عدد كبير ممّن اعتقلتهم أجهزة استخبارات حافظ الأسد. أين هم؟ هل هم أحياء أم أموات؟.

كان أهالي المعتقلين، في حلقة دورانهم وبحثهم الطويل، يواجهون في النهاية جوابًا واحدًا لا غير: "لا نعلم عنهم شيئًا. هم ليسوا لدينا". لا أدري من فكر في الأمر أو خطط له، ففي عام 1989 وبعد أن أغلقت كل الأبواب في وجوههن، قررت مجموعة من زوجات المفقودين وأمهاتهم وأخواتهم أن يتوجّهن إلى القصر الجمهوري، وهناك قد يتمكنّ مقابلة حاكم سورية الوحيد الأوحد، ويمكن لهن أن يناشدن كلّي القدرة والآمر الناهي، وهو الذي بإشارة من يده يعود من يبحثن عنهم إلى الحياة.

كان الأمر شديد الخطر، فلا أحد يمكنه أن يتكهّن بماذا سيرد النظام على خطوتهن، بعد أن أخضع الطاغية سورية حتى آخرها، فهل يتقبل محض السؤال عما يقرره؟ كانت كل الاحتمالات ممكنة، من إطلاق النار عليهن إلى اعتقالهن، وفي أحسن الأحوال فإنهن سيتعرضن للضرب والإهانات، ثم يعدن إلى بيوتهن كما غادرنها. رتب أحد ما الأمر بسرية كاملة: ستأتي نسوة من مناطق عدة من

سورية، ويجتمعن في دمشق، ثم يتوجّهن إلى القصر الجمهوري. لقد رتب طريقهن، ومكان لقائهن وكيفية تصرفهن.

في ذلك اليوم استيقظت أمي باكرًا، ولم تخبر أحدًا عن مشروعها ولا إلى أين هي ذاهبة، فهذا ما طُلب منها. لقد أوصت أختي المتزوجة التي تسكن قريبًا من بيتنا فقط، أن تهتم بالبيت حتى عودتها. في طريق سفرهن من اللاذقية إلى دمشق، كان الخوف والأمل يتناوبان على وجوه الذاهبات إلى المجهول، فحاولن الغناء وأن يضحكن قليلًا، وصمتن، صمتن كثيرًا، وفكرن في كل شيء. ستخبرني من كانت قد شاركت في تنظيم التظاهرة، وهي تلك التي التقيت بها بعد خروجي من السجن، أن أمي غنت في الطريق وضحكت، وكانت تبشر الذاهبات بأن الأمر سيكون خيرًا.

في دمشق، تجمعن قريبًا من القصر، ويومئذ لم يكن يصنفن أنفسهن في طوائف أو مناطق أو قوميات. حين ذاك، لم يكن علويات وسنّيات ومسيحيات وكرديات وإسماعيليات ودرزيات وغير ذلك، لقد كن سوريات مقهورات فقط، أولئك السوريات توجّهن إلى حيث أرشدهن من نظموا الأمر، لكن الحرس أوقفهن، فأوضحن لهم أنهن ذاهبات إلى "السيد الرئيس" لرؤيته، ولم يفصحن عما يردن من رؤيته. بعد جدل طويل مع الحرس المدججين بأسلحتهم وتجهمهم، وبعد اتصالاتهم بجهة ما، سُمح لهن بالتقدم حتى الحاجز الثاني، وهناك كان الرجل باللباس المدني الرسمي يقف متجهمًا ومتمعّجًا ومتأفّفًا في انتظارهن.

عنده، لم تفلح محاولاتهن بإخفاء هدف زيارتهن، لقد كنّ يجاوبن فقط: "ما نريده سنقوله للسيد الرئيس"، لكن الرجل الغامض

المتجهم أعلن بحسم أنه لا يملك وقتًا للكلام، فإما أن يقلن ماذا يردن أو يعدن إلى حيث أتين. أُفشي السر ،وبدأت النسوة المتلهفات يشرحن ماذا يعني اختفاء أزواجهن أو أبناءهن أو... لم يستمع إليهن طويلًا، وعندما فهم ماذا يردن، صرخ فيهن ليصمتن، ثم تنحنح، وقال:

"هلق جايين تشوفوا السيد الرئيس منشان تسألوه عن جواسيس، اللي بدكن تسألوا عنهن جواسيس لإسرائيل، هدول خانوا الوطن، هدول لازم إنتو تتبروا منهن، هدول لازم نعدمهن، ياللا ارجعوا عبيوتكن وانسوهن، ولا بقى تفكروا تعملوها مرة تانية، قسمًا بالله برشّكن كلكن، ياللا انقلعوا لشوف".

في طريق العودة، كانت أمي تبكي طوال الطريق، وعندما قالت لها الصبية: "أم بسام. شبك؟ كنا متوقعين هيك يصير، بس ما لازم نفقد الأمل، الشباب اللي جوّا بيستاهلوا نتعب منشانهن". يومئذ، أجابتها أمي: "والله ماعم إبكي لأنه ما استفدنا شي، ولا عم إبكي لأنه رح يضلوا مختفين، بس عم إبكي لأنه قال عنهن جواسيس وخونة، والله نحنا منعرف شو مربايين، وولادنا ما هني جواسيس ولا خونة".

من الذي كتب؟

أقسمت أمي أنها رأته: «كان نحيلًا طويلًا وشعره غزير مجعد». ما إن لفظت كلمة «شعر»، حتى قاطعتها جارتنا التي تزوجت حديثًا؛ صارخة ومقسمة هي الأخرى: «إنه أصلع تمامًا، وإن شواربه تحتل نصف وجهه». انتفضت أمي وأسرعت مخترقةً حشد النسوة ومقتربة منها لتصرخ في وجهها: «كاذبة؛ لأن شعره يصل إلى كتفيه». احتدمت المناقشة، وارتفع صراخ النسوة، وكلّ منهن تُقسم أنها رأته؛ معيدةً تشكيل صورة الرجل، حتى لا يتقاطع بصفة واحدة مع زوجها وأي رجل يعنيها.

عندما تعبن أو تذكرن أعمالهن، تفرقن وهن صامتات. فوق تراب الزقاق الضيق تكوّمت صفات رجل لم تره أيّ منهن: طويل ولا يزيد طوله على متر، وبدين إلى درجة أن عظامه ترتسم واضحة تحت جلده الأعجف، وأصلع بشعر طويل يصل إلى كتفيه، كما أنه شاب يزيد عمره على الستين!. أقفر الشارع، وخيم صمت مثقل بالرهبة والترقب فوق الحارة الصغيرة، ثم تسلل إلى البيوت المعتمة، ليستحيل رعبًا طاغيًا يملأ فراغ الغرف الضيقة ويرتسم فاقعًا فوق الوجوه الخائفة المنتظرة.

منذ أن انتشر الخبر، والحارة الصغيرة ترزح تحت ثقل انتظار مرير مرعب، انتظار لا أحد يعرف ما سيفضي إليه، الرجال الذين غادروا باكرًا إلى أعمالهم لم ينتبهوا إلى الحائط المشؤوم، ربما بسبب الظلمة أو نعاسهم الذي يلتصق بعيونهم، حرنًا وقاسيًا، وربما لأنهم منذ أول مرة أصبحوا يحذرون المرور إلى جانبه. وحدهم الصبية الذين تقيأتهم

الغرف المعتمة إلى الزقاق، زحامًا ضاجًا مشاكسًا، انتبهوا إلى الكلمتين المتعرجتين المكتوبتين على عجل بخط سيئ فوق الحائط الأصفر الذي يرتفع حاجبًا الحارة عن الشارع العريض المار بجواره.

لم يقرؤوا شيئًا، ولم يعرفوا ماذا تعني هذه الخطوط المتعرجة، ولكنهم أدركوا أن هذا يعني قدوم تلك السيارات المجنونة، برجالها المسلحين الذين سيقتحمون البيوت بيتًا بيتًا، يقتحمونها بفظاظتهم وشتائمهم وركلاتهم، ويزجون الآباء في داخل سياراتهم السوداء، ليعودوا بوجوه متورمة، وبقع زرقاء داكنة تغطي أجسادهم.

بعد كل مرة، كان رجال الحارة يجتمعون؛ محاولين فعل أي شيء من شأنه أن ينهي هذا الرعب الذي يتربص بهم دائمًا، وفي كل مرة كانوا يقترحون هدم الحائط. لكن، من سيسمح لهم بأن يظهروا بؤس بيوتهم للذين يعبرون الشارع العريض الذي يوصل إلى قصره؟.

فكروا في أن ينظموا حراسة متناوبة، لمنع الكتابة على حائط الشؤم هذا، ولكن من منهم سيكون قادرًا على السهر، بعد تعب نهار كامل؟ أفكار كثيرة وصراخ وشتائم واتهامات، ثم ينهار كل شيء ببساطة شامتة، ويبقى صمت باهظ متخم بعجز لا نهاية له. كانوا ينفخون أنفاسهم بحرقة، ثم يتجهون إلى بيوتهم مستسلمين، وهم يتحسسون مواضع الألم، وخطاهم المتمهلة العرجاء تحاذر انفجار الدم من البقع الداكنة المتشققة على أقدامهم.

النسوة ينتظرن عودة أزواجهن من العمل، والرجال لا يعلمون شيئًا عما ينتظرهم عند عودتهم، والأطفال الذين عادوا إلى بيوتهم تكوموا في زوايا غرفهم المعتمة صامتين. وحده الحائط الأصفر

المرتفع الذي استرخت فوقه الكلمتان المكتوبتان بخط مرتبك، ينتصب في وجه الحارة الصغيرة الخائفة التي تنوء بانتظارها المرعب وسؤالها الممض: يا ترى من الذي كتب «يسقط الطاغية»؟.

أصابع لا تكفي

كعادتها كل يوم، الأم التي أرهقها العمر والانتظار تفتح عينيها في غبش الفجر، تتمتم تعاويذها وبسملتها، ثم تنصت إلى صوت الأب النائم إلى جوارها، وعندما يصلها صوت الحشرجة الخفيفة المتقطعة بانتظام، تحمد الله وهي تسحب جسدها الناحل بهدوء لتغادر فراشها، ماضيةً عبر الظلمة الشفيفة، ومهتدية بألفتها وتمتماتها الخافتة.

تفتح باب الغرفة بهدوء، تعبره إلى صالة ضيقة غصّت بأثاث يرقد في العتمة؛ مهجورًا وهرمًا وشاحبًا، ترمي بنظرة سريعة فوقه، ولكأنها تطمئن إلى أنه ما يزال حيًا هو الآخر، ثم تذهب إلى القسم الداخلي، لتعود بعد قليل وهي تنشّف ماء الوضوء. تفرش سجادة الصلاة وتبدأ صلاة سريعة بركعات مختصرة، وما إن تنتهي من طقوس صلاتها، حتى تجلس متربعة فوق السجادة؛ ميممةً وجهها جهة الجنوب، وفاتحة كفيها إلى الأعلى وهي كاشفة عن رأسها، لتبدأ دعواتها الطويلة، فالفجر هو الوقت الأفضل لاستجابة الدعوات. يطول دعاؤها حتى يوشك الدمع أن يفسد كل شيء، فتنهض وتلم السجادة ثم تعيدها إلى مكانها، وتمضي لتعد قهوة الصباح.

توقظ الأب وتناوله قهوته «سكر وسط»، وتعود مرة أخرى لتحضير قهوة أخرى بلا سكر، وتحملها وتمضي إلى الغرفة الصغيرة، وتفتح بابها بهدوء ثم تضع القهوة على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، وتوقظ ابنها الوحيد من دون أن تشعل الضوء، ومن دون أن تتكلم، تهمس بصوت تسمعه وحدها فقط، وتغادر لتجهز طعام الفطور.

الأب والأم والابن، ثلاثة كراسي تتحلق حول طاولة الطعام، صمت مخدوش بأصوات المضغ، الأب ينتهي من طعامه، وينهض ويسألها عما تحتاج إليه ليحضره عند عودته ويغادر. تشيعه بنظراتها حتى يغلق الباب الخارجي، وعندما تتأكد أنها أصبحت وحدها، تبدأ رحلة الصحون أمام كرسي الابن: «كُلْ من هذا يا بني، وهذا، هذا يفيد أكثر»، الصحون تدور وتمر كلها أمام الكرسي، وعندما تطمئن إلى أن الابن تناول ما يكفيه، تنهض وترفع الصحون وتمسح الطاولة، وقبل أن تبدأ أعمالها اليومية، تذهب إلى غرفة الابن تستحثه: «كلها سنة وتنتهي من جامعتك، هيا ستتأخر كعادتك». تتأكد من ثيابه وتسريحة شعره، وتمشي أمامه إلى الباب الخارجي لتفتحه ثم تودع ابنها وتراقبه حتى يغيب في انعطافة الشارع، فتعود إلى غرفته وتفتح نوافذها وترتب السرير وتمسح الطاولة، ثم تنظف زجاج المكتبة، وتتفحص صفوف الكتب النائمة منذ زمن طويل خلف زجاج متلامع. تحمل القهوة التي ظلت كما هي، وتغادر.

عندما يعود الأب، تكون طاولة الطعام قد أصبحت جاهزة؛ الكراسي الثلاثة، الصمت المخدوش، والمضغ الهادئ الذي يوحي بالضجر والحزن. كالعادة، ينهض الأب قبل الجميع ليستعد لنوم ساعة ما بعد الظهر، يدخل إلى غرفة النوم، ويغلقها، لتبدأ رحلة الأطباق على الطاولة: «لقمة من هذا الصحن، وهذه، هذه».

العشاء، الصمت، الكراسي الثلاثة، الأطباق الدائرة، الأب الذي ينهض أولًا، ثم يمضي إلى المقهى ليسهر، الأم ترفع العشاء، وتمسح الطاولة، وتذهب إلى غرفة ابنها لتغلق نوافذها، وترجو له ليلة هانئة، ثم تمضي وحيدة إلى غرفتها، تندس في فراشها، وقبل أن تغفو تبدأ كعادتها بعدّ سنوات سجن ابنها، تعدها على أصابع يديها التي لم تعد تكفي.

1987 – 11 – 25

أتكوّر في زنزانتي العارية. قبل قليل أعادوني من جولة التعذيب الأخيرة، وموجات من الألم الشديد تجتاح جسدي كله، من قدمي حتى رأسي. أتحسس برؤوس أصابعي وجهي المتورّم الذي يحترق كما لو أنه فوق صفيح ساخن، وما إن أتلمسه حتى يزداد الألم، فأبعد أصابعي وأتحسس بلساني أسناني التي فقدت ملاستها وغطتها نتوءات حادة. أفكر: "ربما تكون قد تكسّرت بعد لكماتهم التي استقبلوني بها". كنت ما أزال واقفًا ويداي مقيّدتان وراء ظهري وعصبة بلاستيكية مرنة وسميكة تغطي عينيّ، عندما أطاحتني لكمة عنيفة على وجهي، شهقتُ وأحسست أن فمي يمتلئ ببقايا صلبة تنطحن بسهولة تحت أسناني.

سقطتُ، ولكن قبل أن أصل إلى الأرض تلقفتني أيد ما وأوقفتني، لتهوي على بلكمة أخرى، وأخرى. كان جسدي يتطوّح يمينًا ويسارًا وأمامًا وخلفًا، لكمات متلاحقة تنهال من الجهات كلها، وأنا أشهق وأحاول، بحدس الروح، أن أتجنب لكمة ما، فتقع عليّ أخرى، وأنا لا أرى جهات الخطر، لا يحق لي أن أرى؛ لأننا نحن المسجونين محرّم علينا أن نتعرّف إلى وجوه الجلادين.

لقد كففت عن استكشاف ما حلّ بأسناني، وكانت حركة لساني تؤلمني، فتوقفت، أحاول أن أحرك جسدي قليلًا وأتوقف. اللعنة! من زرع أرض هذه الزنزانة اليابسة بكل هذه الكتل الإسمنتية المسنّنة؟ أي عقل هذا الذي يشتغل على صناعة كل هذا الألم؟ أحاذر أي حركة في تكوري داخل زنزانتي المعتمة، فهذه الكتل المسننة اللعينة تنغرز في جسدي بلا رحمة، فأتوقف عن محاولاتي الوجلة أيضًا.

أستعيد وجه أمي التي ظلت صامتة طيلة الدقائق القليلة التي أمضوها في بيتنا، منذ وصولهم وحتى اقتيادي إلى سيارتهم. لم تقل إلا جملة واحدة، مختنقةً ومتوسلة، ما زال صوتها وهي تنطق بها "يا خالتي لوين آخدينو؟" يتكرر بلا توقف في ذاكرتي، لا أدري لماذا صمتت، بعد أن أجابها ضابط الاستخبارات ساخرًا: "لا تخافي، فنجان قهوة بس". يبدو أنها أيقنت أنْ لا فائدة من الحديث معهم، فصمتت، لكن دموعها ظلت تسيل بهدوء، ولم تقل شيئًا.

راحت تراقبني وأنا أخطو خطواتي الأخيرة في اتجاه سياراتهم. مشيت بين حشد عناصر الاستخبارات الذين جاؤوا لاعتقالي صامتًا. أنا الآخر لذت بالصمت، ثم ما إن أصبحت داخل إحدى السيارات حتى بدؤوا بضربي. أحكموا وضع شيء ما سميك على عينيّ، ما منعني عن رؤية أي شيء حولي، ووضعوا يديّ خلف ظهري، وقيدوهما بقيد معدني ضيق، وكبسوا رأسي، فتصيّرت متكوّرًا، ويداي تنتفضان ألمًا بسبب حديد القيد المغروز فيهما، وضرباتهم تنهال عليّ كيفما اتفق.

عندما وصلت السيارة إلى باحة فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية، فتحوا بابها، بركلة قوية من أحدهم قُذفت إلى خارج السيارة، ثم أنهضوني، وبما يشبه السحل سحبوني إلى جوف البناء، ثم إلى غرفة التحقيق. جولة من التعذيب ثم أخرى وأخرى، فهم في البداية لا يريدون منك إلا أن تنهار وتتوسل وتستغيث، ثم بعدها فقط يسألون ويباشرون.

في البداية صرخت وصرخت، وكان صفير اختراق الكبل الذي أجلد به في الهواء، قبل وصوله إلى جسدي، يبعث في نفسي رعبًا هائلًا،

ثم بعد أن تعبت من الصراخ، سكتُّ، وحاولت ألا أسمع صوت أزيز الكبل وصفيره وارتطامه، ولكأنني اقتنعت بأن لا جدوى من الصراخ ولا من التوسل، فتركت جسدي لهم وتخلّيت عنه، هجرته وتركتهم يفتتونه كيفما يشاؤون، أصبحت جثة صامتة.

جولة تعذيب أخرى، وتعقبها أخرى، النهار يمضي بطيئًا. عندما يرتاحون بين جولة وما بعدها يتركونني متكورًا وعاريًا، إلا من سروالي الصغير، ويديّ مقيدتان وراء ظهري، فأحاول التكور أكثر، ولكنني لا أستطيع. لم يعد هذا الجسد المدمى جسدي، لم تعد يداي لي، ولم يعد رأسي لي، ولم تعد أي قطعة من هذا الجسد لي.

كان الليل قد بدأ عندما انتهى يوم عملهم، فأمسكني اثنان من إبطيّ وسحباني من الطابق الثالث إلى المنفردات في الطابق الأرضي، وفتحوا باب إحداها، ونزعوا القيد عن يديّ والطميشة عن عينيّ، وألقوني على أرضها، ورموا ثيابي فوقي، وغادروا. ينتفض جسدي تحت موجات ألم تتواتر بسرعة، وأشعر بأن كتل الإسمنت المسننة، وهي المزروعة عمدًا في أرض الزنزانة اليابسة، تمزق جسدي، ولكنني لا أقدر على تحريكه.

أسمع أصواتًا قريبة مني، فثمة أشخاص يتهامسون، ثم يرتفع صوت أحدهم أكثر، ويسأل: "أنت. شو اسمك؟". أحاول أن أقول شيئًا، ولكنني ما إن أفتح فمي حتى أشعر بألم حاد في فكي، فأصمت. يسألني مرة أخرى بصوت أقوى: "أنت يا جديد. شو اسمك؟". أقول بكل قدرتي: "اسمي بسام يوسف". لا يخرج صوتي، محاولة الكلام تبعث في فكي موجة حادة من الألم، أصمت، وأبقى متكوّرًا بلا حركة.

هل غفوت أم غبت عن الوعي أم..؟ أفتح عينيّ في الظلمة، فلا أدري أين أنا، كل شيء غائم، ولكن صوت قرقعة حادة لمفتاح في قفل باب زنزانتي يذكرني أين أنا، يَصِرُّ باب الزنزانة المعدني بصوت حاد، ثم أشعر كما لو أن حزمة من ضوء تسقط على وجهي. أحاول فتح عيني المتورمتين عبثًا، ولكنني أشعر بأن أحدًا ما يقف عند باب الزنزانة، وأسمع صوت تنفسه يصمت قليلًا، ثم يسألني بلهجته المتغطرسة: "هنت من الديلي (أنت من الدالية)؟".

أهز رأسي بالإيجاب، ولكن رأسي لايتحرك، فيركلني بحذائه على قدمي: "يا كرّ مسألك: هنت من الديلي؟". أصمت، فيركلني مرة أخرى بقوة، فينتفض جسدي بموجة ألم حادة، وأواصل صمتي، فيركلني ركلة أخرى أشد عنفًا، ثم بصوت أقرب إلى العواء: "متطلع ضد الرئيس يا عرص، والله لنسّيك الحليب اللي رضعتو، والله لأعدمك".

يخبط باب الزنزانة بقوة، ثم يقرقع مفتاحها مرة أخرى، وتعود الظلمة، بينما تبتعد خطوات "من سينسيني حليب الرضاعة". أعود إلى غيبوبتي مرة أخرى، ولكن "بطل نسيان الحليب" يبكر في طلبي. لم يكن موعد بدء العمل صباحًا قد حان، عندما تم اقتيادي مرة أخرى إلى غرف التحقيق. كان يفحّ مثل أفعى وهو ينهال بكبله الرباعي فوق جسدي الوحيد المطروح أرضًا: "والله لربي الديلي فيك. ولك هنت ضد السيد الرئيس؟ ما عجبك تطلع إلا ضد السيد الرئيس؟ والله بقبل تطلع ضد الإمامو علي، أما تطلع ضد السيد الرئيس! العمى بعيونك العمى".

على الرغم من محاولاته كلها وفنونه في التعذيب كلها، فإني لم أتمكن تذكر حليب رضاعتي، لكي أستجيب إلى طلبه بنسيانه، ويبدو أنني قد نسيته قبل أن ألتقي هذا "الجندي الأسدي الباسل".

لم أكن قادرًا على أن أتذكر شيئًا، لقد كنت أنتفض تحت لسعات ألم لا يوصف فقط. لقد كان جسدي يتمزق، وصرخاتي التي أطلقها؛ معتقدًا أنها تملأ سماء هذا العالم، لم تكن أكثر من أنين عميق متواصل.

هو الجندي الباسل، ككلب مسعور يواصل لهاثه، والكبل الذي بيده يهوي بكل ما يستطيع من القوة، وجملة واحدة يرددها بلا توقف: "آ ياليييييي (يا أيها الذي) ضد السيد الرئيس؟!".

لم تكن سورية حاضرة ولا الإمام علي ولا الوطن ولا أي شيء. وحده السيد الرئيس يُعلن عن حضوره الطاغي بعنصر استخبارات مسعور، وبكبل يستطيع أن يفتت لحم ضحيته؛ إنه الرئيس، الرئيس الأوحد الفرد الصمد المالك السيد، ونحن عبيده الجاحدون المارقون الكافرون به، ونحن الناكرون فضله ومنّه وخيره، نحن من نتنفس هواء الذي ما كان ليكون، لولا عطاءاته وفضله.

في صباح اليوم الثالث من اعتقالي، فتح السجان باب زنزانتي، وهو يزعق طالبًا مني الوقوف. حاولت فتح عينيّ فلم أستطع، كان الورم قد تضاعف، ولم تنفع ركلات السجان ولا زعيقه ولا شتائمه وتهديداته في سكب ما يكفي من القوة في جسدي لكي أنهض. كنت جسدًا متيبسًا ومتورمًا، وكانت كل خلية فيه تنتفض بلسعات ألم لا تحتمل. هكذا، اضطر إلى الاستعانة بعنصر آخر، فجرّوني مثل كيس، كنت أصرخ مع كل خطوة يخطوانها، ولكن صرخاتي كانت هي أيضًا أعجز من أن تتجاوز ذلك الأنين العميق الذي لايتوقف.

كان يومًا آخر من الجحيم في غرفة التحقيق، فالجسد الذي تفتت وتورم وتفصدت جروحه، قد فقد خلال يوميه الماضيين طاقته على

التحمل كلها، وكانت لسعة الكبل الذي يهوي فوق الجروح تُفجّر ألمًا لا يمكن وصفه، ولا يمكن لصراخ في العالم أن يقوله، ولا يمكن أي آلهة أن تخفف بعضًا منه. بعد قليل من بدء جولة التعذيب يُعلن الجسد المنهك زوغانه، فيعطل حواسه كلها ليفعل آخر ما يمكنه فعله.

أشهق بعد دفقة ماء باردة على جسدي الذي تتوهج جروحه كجمر، تؤلمني دفقة الماء الباردة أكثر من ضربات الكبل، فتسحبني من غيبوبتي، وأجاهد بكل ما أستطيع لكي أفتح عيني، ولكنهما تظلان مغلقتين، وإن كنت لا أعرف يقينًا إن كنت قد تمكنت فتحهما أم لا، فالظلمة التي أغرق فيها لا تنقص أبدًا، وذاكرتي التي تبحث عن شيء ما، لكي تحدد أين أنا، لا تعثر على أي شيء، تغيم وتدور قبل أن تباغتني دفقة ماء أخرى، فأشهق مرة أخرى، وأشعر كما لو أنني بلا ذاكرة، لاشيء حولي والعالم أسود وحارق، ولكنني أستعيد شيئًا فشيئًا قدرتي على التذكر، بعد أن أسمع صراخهم وشتائمهم، أتذكر أين أنا وألعن حظي؛ لأنني ما زلت على قيد الحياة.

في جولة أخرى، يغمى عليّ ويُسكب فوقي الماء البارد مرة أخرى، وأسمع سيل الشتائم المصحوب بركلات أحذيتهم، وستظل جملتهم المستنكرة تتردد دائمًا: "ضد السيد الرئيس!؟". لا أدري لماذا يصرون على ترديدها دائمًا، لكأنما يحتاجون إليها لكي تحفز فيهم القدرة على سحق الآخر بلا رحمة، إذ ما إن يصرخ بها أحدهم حتى تنتابهم موجة هيجان جديدة تتحول إلى عنف مجنون، فينصب انصبابًا فوق الجسد المقيد أمامهم، وما إن تبرد ضغينتهم ضده قليلًا، حتى يبادر أحد ما ليحفزهم من جديد، فيطلق المعزوفة عينها: "قلتلي هنت ضد السيد الرئيس!"، لتبدأ معركة جديدة بينهم وبين الجسد المسجى أمامهم.

ثم أحضروا شخصًا ما لرؤيتي، وأظنه كان طبيبًا، وقد كنت كتلة من اللحم المدمى مشلوحة فوق بلاط وسخ في غرفة تحقيق قذرة، غير قادر على الحركة. عندما اقترب مني شخصان، قلبني أحدهم بعنف ليرى الجهة الأخرى من جسدي، وسمعت الآخر يقول له هامسًا: "أوقفوا التعذيب، لقد بدأت جروحه تلتهب، سيكون من الأفضل لو نقلناه إلى المشفى، أعرف أن هذا غير ممكن، ولكن علاجه أصبح ضروريًا".

قرروا علاجي في الزنزانة، ومن يتولى أمر علاجي هو مسجون آخر، وقد عرفت أنه طبيب، سيكون هذا مهمًا جدًا لي، فثمة شيء آخر شديد الأهمية، وهو أن الطبيب المسجون الذي يعالجني قد استطاع أن يدخل إلى زنزانتي نصف بطانية عسكرية وجدها فوق سطح الزنازين. هكذا استطاع، بها وبما لديّ من ثياب، أن يخفف من حدة النتوءات القاسية في أرضية الزنزانة. صرت أجلس في زاوية الزنزانة. أسند رأسي على ما يشبة وسادة صنعها لي الطبيب المسجون من قميصي الداخلي، بعد أن حشى فيه فردتي حذائي وربطه جيدًا، فحذائي لم يعد له أي فائدة؛ لأن رجليّ المتورمتين كثيرًا لم يكن بالإمكان إدخالهما في فتحته.

هنا، لا يمكنك أن تعرف الليل من النهار، وثمة مؤشر وحيد يمكنك أن تستدل به على الوقت، وهو مواعيد قدوم الطعام أو التحقيق، وما تبقى هو زمن للألم والعتمة والصمت والذاكرة. أجلس في العتمة الدائمة، أحيانًا بعد أن قرروا أن يتركوا باب زنزانتي مفتوحًا، كي يتمكن الطبيب مواصلة علاجي، كنت أطلب منه ألا يغلق الباب تمامًا، حتى يتسرب الضوء الخافت من خلال الشق الصغير.

في فرع فلسطين

أحد عشر مسجونًا، برؤوس منكسة وأيدٍ مغلولة إلى الخلف، غادرنا فرع المخابرات العسكرية في اللاذقية؛ متجهين إلى فرع فلسطين في دمشق. كانت الحافلة التابعة لفرع المخابرات تتأرجح بقوة على الطريق بين اللاذقية وطرطوس، وهو الطريق الذي كان قد دُشن حديثًا ولم يكتمل بعض منه بعد، فكانت رؤوسنا تصطدم بقوة على مسند المقعد أمامنا، والسائق الذي يواصل قيادته المجنونة لا يتوقف عن صراخه وشتائمه المتواصلة الموجهة إلى السيارات والسائقين الآخرين الذين يشاركونه الطريق.

لم تتوقف الحافلة إلا لدقائق عدة، وغادرها أحد عناصر المرافقة ليحضر شيئًا ما، ثم عاد مسرعًا، وفي انتظاره تسلى بنا بقية العناصر: تفحصوا الطميشات ليتأكدوا إن كانت قد ارتفعت قليلًا عن أعيننا، وذكرونا بالسيد الرئيس وبجريمتنا الكبرى التي هي معارضتنا له، وسخر أحدهم من الحكومة التي تكتفي باعتقالنا ولا تعدمنا فورًا. صمتنا وعاد المرافق الذي ذهب ليجلب غرض ما، ثم انطلقت الحافلة من جديد في اتجاه دمشق.

أحاول أن أحدد المنطقة التي وصلنا إليها، فأعجز. وحده هدير محرك الحافلة يتواصل بلا انقطاع وعناصر الدورية الذين يخفروننا إلى دمشق يصمتون أحيانًا ثم يعاودون حديثهم، ونحن إحدى عشرة رأسًا منكسة تصخب الأفكار فيها بصمت؛ محاولةً أن تتكهن بشيء عن مصيرها وماذا حل بعائلاتها وإلى متى سيطول غيابها. هي الأسئلة ذاتها التي بلا نهاية وبلا أجوبة.

نقترب من دمشق، أعرف ذلك من ازدحام السيارات وأصواتها، يخفف سائق الحافلة من سرعته؛ مواصلًا إطلاق شتائمه على سائقي السيارات المجاورة له. ها هي دمشق، وهي المدينة التي نتحدث عنها وكأنها قدس أحلامنا، تستقبلنا منكسي الرؤوس ومقيدين. تدور الحافلة وتنعطف وتتوقف، ثم تواصل سيرها لتتوقف على بوابة ما. يفتح أحد ما بابها ثم يلقي تحيته: "مرحبًا يا شباب، معنا دفعة جديدة".

نسمع صوت بوابة تنفتح، وتتحرك الحافلة إلى داخل ساحة فرع فلسطين، ثم تتوقف. نهبط من الحافلة، ونقف إلى جانبها صفًا واحدًا، ثم ننتظر قليلًا، ونتبع رئيس الدورية إلى داخل المبنى، تم تسليمنا إلى فرع فلسطين. يسأل رئيس الدورية عن مصير الطميشات والكلبشات، فهو يريد أن يرجعها معه إلى فرع اللاذقية، وعندما يطلب منه الذي استلمنا أن ينتظر قليلًا كي ينتهي من فرزنا، يغادرنا على أنه سيعود.

يسأل عنصر فرع فلسطين: "من منكم بسام يوسف؟"، فأجيبه: "أنا"، يضحك ساخرًا: "مدعوم كتير والله، كاتبينلك استكمال تحقيق، والله لتنسى الحليب اللي رضعته"، واسترسل بسخريته قائلًا: "هلق هنتو بدكن تسقطوا دولة البعث؟!"، ثم ضحك ونادى على أحد ما. قلت في نفسي: "هذا عنصر مخابرات مثقف. لقد صنفنا ضد دولة البعث، وليس ضد سيادة الرئيس". لم يطل الأمر كثيرًا، عندما جاء العنصر الذي استدعاه، وأشار بيده إليّ، ثم قال:

"خدلي هالجحش. حطو بغرفة تحقيق لوحدو، وجيب الطميشة والكلبشة، قال بدو يسقط سورية الأسد، ولك الله ما بيسقط الأسد. استكمال تحقيق! العمى بعيونك، شو مفكر التحقيق هون متل بفرع اللاذقية! ولك يا حمار، باللاذقية التحقيق مزح، مزح".

يسحبني العنصر من يدي، فأنسحب حافيًا على بلاط الممر، ثم عند إحدى الغرف يتوقف، ويفتح بابها ثم يدخلني إليها، ويفك القيد عن يدي وينزع الطميشة عن عيني، فيصدمني الضوء وأعاود إغلاقهما، ثم أسمع باب الغرفة يغلق ويقفل من الخارج، وشيئًا فشيئًا أتمكن فتح عيني؛ لا شيء في هذه الغرفة، غرفة فارغة إلا من طاولة معدنية، غرفة عارية بجدرانها المطلية بلون رصاصي، ومن سقفها تتوهج ثلاث لمبات طويلة من النيون الأبيض.

عبد الله

أختي التي تكبرني بسنتين اصطحبتني إلى المدرسة في أول يوم من أيام عالم الدراسة، ولقد كنت أرتدي ثيابًا جديدة؛ لأن أبي الذي قبض تعويضًا عن إصابته في الحرب، قد صار قادرًا على أن يشتري لنا ثيابًا جديدة. عندما قُرع الجرس، تركتني أختي لتقف حيث يقف طلاب الصف الثالث. أما أنا، فقد وقفت مع الطلبة الجدد. لم تكن المدرسة بناءً واحدًا، بل كانت غرفًا متفرّقة قديمة مستأجرة. أدخلونا إلى إحداها، وكانت ترابية وعاتمة، فتكدّسنا فوق مقاعدها، ولم يطل بنا الأمر، حتى دخل مدرس متجهم أعاد ترتيب أماكن جلوسنا، بحسب أطوال قاماتنا.

كنت في صف المقاعد الثاني وإلى جانبي عبد الله الذي كان محمود إلى جانبه. عبد الله كان أصغر إخوته، وكان نحيلًا يرتدي دائمًا ثيابًا لا بد أنها لأحد إخوته الأكبر منه، فيغدو بجسده الناحل وثيابه الواسعة أقرب ما يكون إلى الفزاعات التي ينصبها أهلنا لإخافة العصافير. كان صامتًا وخجولًا وغير مجتهد، ولكنه طيب ومسالم. في العام نفسه وفي أحد أيام كانون الثاني شديدة البرودة، وصل عبد الله إلى المدرسة وهو يرتجف، وكانت أسنانه تصطك بقوة وجسده يرتعش، ولم نكن نجرؤ على أن نخبر المدرس بالأمر.

في ذلك اليوم، باءت بالفشل كل محاولاتنا لإشعال مدفأة الحطب داخل الصف، إذ كان الخشب مبلولًا والهواء الذي كان شديدًا يومئذ يدفع الدخان المنبعث من احتراق الخشب الرطب كله إلى داخل غرفة الصف، ما اضطر المدرس إلى إيقاف المحاولة، وغادر الصف إلى الإدارة.

بعدما غادر المدرس الصف، استسلم عبد الله لألمه، وما كان يخفيه خوفًا من المدرس لم يعد مضطرًا إلى إخفائه. تكوّر فوق المقعد وراح يرتجف بعنف، كنت أرى قدميّ عبد الله الظاهرتين من أسفل حذائه المهترئ، كانتا زرقاوين، لم يكن يرتدي أي شيء يحميهما به. ذهب عريف الصف إلى الإدارة ليقول للمدير إن عبد الله يموت. هكذا، جاء المدير ومعه الآذن، واصطحبوا عبد الله إلى غرفة الإدارة، وبعدها أرسل المدير في طلب والده، فذهب عبد الله إلى بيته.

لم يأت عبد الله في اليوم الثاني إلى المدرسة، ولأنني جار عبد الله في المقعد، فقد سألني الأستاذ عنه، فقلت له: «إنه غائب». لا أدري يومها لماذا اهتم المدرس بعبد الله، فقال لي مهددًا: «كل يوم، بعد انتهاء المدرسة، بتروح لعند عبد الله، وبتقرأ إنت وياه كل الدروس التي سنأخذها. بسلخ جلدك إذا مارحت»، فوافقت. أخبرت أمي عن المهمة التي كلفني بها المدرس، فوافقت على مضض. هكذا، بعد أن استمعت إلى سلسلة التعليمات: «عدم الاقتراب من عبد الله والأكل معه؛ لأنه قد يكون مصابًا بالتيفود (التيفوئيد) و.. و...»، فحملت محفظتي، وتوجهت إلى بيت عبد الله.

هبطت الزاروب المتعرج المفضي إلى بيت عبد الله، وكان البرد شديدًا والسماء تمتلئ بغيوم سوداوات وريح مجنونة تصفر في شجرات السنديان. انعطفت أمام بيت عبد الله الترابي، ولم يكن أحد هناك. ترددت قبل أن أعبر الباب المفتوح، ومددت رأسي إلى الداخل. لم يكن ضوء النهار قادرًا على تبديد الظلمة الشفيفة التي تربض داخل البيت الغارق بالصمت، ثم عبرت من الباب. لم يكن هناك أحد في البيت (فكرت أن عبد الله لا بد أن يكون نائمًا في العرزال)، ولكن صوته جاءني من الجهة الأخرى، صوت واهن ممزوج برنة فرح: «أنا هنا. تعال».

مشيت فوق الأرض الترابية المرصوصة بقوة، وكان عبد الله يستلقي فوق فراش رقيق إلى جانب النافذة الضيقة. كان رأسه يخرج من تحت ركام الأغطية التي تغلّفه، وجلست إلى جانبه، حيث كانت بقايا حَطَبة ما تزال تتوهج في الحفرة التي تتوسط مكان المعيشة، وتقوم مقام المدفأة. كان صوت تنفسه المتلاحق يمتزج بأنّة خفيضة، والضوء الذي يعبر النافذة الصغيرة يسقط فوق وجهه وأغطيته. كان وجهه شديد الحمرة.

«قلت لأمي أن تضعني هنا، هناك في العرزال عتمة شديدة». قالها عبد الله وهو ينظر عبر النافذة، ثم أضاف: «أنظر فأرى الغيوم تملأ فسحة الزجاج، غيوم عابسة قاتمة، أقول متحسرًا: لن نرى الشمس اليوم». قلت لعبد الله عمّا طلب مني المدرس، ولم أدر كيف سأشرح له ما أخذناه من دروس، فصمتنا. بعد قليل نهضت، فقال وهو يستند إلى مرفقيه؛ ساحبًا جسده إلى الأعلى:

«لا تذهب. لقد ضجرت، منذ الصباح وأنا لوحدي، ذهب أبي وأمي إلى بيت أختي التي تلد، وإخوتي تركوني، وذهبوا». ثلاثة أيام غابها عبد الله عن المدرسة، وكنت خلالها أزوره يوميًا، منذ ذلك اليوم أصبح عبد الله رفيقي الدائم، واستطعت أن أقنع أمي بأن تعطيني جوربًا وكنزة صوفية كي أعطيهما له. ترددت أمي، فأنا أكبر إخوتي، والثياب التي أرتديها ما تزال أمامها مهمات كثيرة، فهي ستواصل انتقالها من أخ إلى آخر، حتى تهترئ تمامًا، لكنها وافقت.

لم يكن قد مضى إلا بضعة أشهر على وجودنا في الأول الثانوي، عندما أخبرني عبد الله أنه سيترك المدرسة وأنه سيتطوّع في سرايا الدفاع. ودّعته في ذلك اليوم، وفي صيف ذلك العام جاء في أول

إجازة له، وكانت قد مضت ستة أشهر على ذهابه، وقد جاء إلى زيارتنا ببدلته العسكرية المرقّطة، وكان ما يزال خجولًا. وضع جانبًا كيسًا بلاستيكيًا، وعندما خرجت أمي لتحضر لنا الشاي، ضحك قائلًا: «هناك حسنات بعشرة أمثالها، وهناك حسنات بمثلها». أخرج من الكيس رزمة من الجوارب؛ قائلًا: هذه من نوع الحسنة بعشرة، ثم أخرج كنزة، وقال: «هذه من نوع الحسنة بمثلها».

لم أر عبد الله بعدها، فقد انتقلنا في بداية العام الدراسي إلى اللاذقية. كنت أحيانًا أرسل إليه سلامًا مع أحد إخوته، وكان يصل إلي منه سلام مع أحد ما. بعدما فشلت محاولة انقلاب رفعت الأسد على أخيه، ففشل في انتزاع السلطة في 1984، تقرر حل سرايا الدفاع. هكذا، انتقل عبد الله، بعد وساطة من أحد ما، إلى شعبة المخابرات العسكرية.

في فرع فلسطين وفي أول جولة من جولات التعذيب، سأصرخ مستغيثًا بجدي «عبد الله الدالية». هكذا يستغيث كل أبناء قريتي، عندما يقعون في مشكلة ما. يتوقف من يجلدني عن جلدي، فجأةً وبما يشبه الجنون يندفع إليّ وينزع الطميشة عن وجهي، وينظر إليّ ويسألني: «من أنت؟». سكتّ، إذ كان ممنوعًا علينا أن نذكر أسماءنا، فصرخ بانفعال: «ولك، اسمك بسام؟». هززت رأسي موافقًا، فأدار وجهه جانبًا. دار في غرفة التحقيق بعد أن أغلق بابها، وكان يدور ويدور، ولم يعد ينظر إلى اتجاهي، ثم فجأة التفت إليّ، كانت عيناه مليئتين بالدمع، وتمعّن بي ثم سألني: «ما عرفتني؟».

لم أكن قد رأيته منذ عشر سنوات، وكان قد تغير كثيرًا، هززت رأسي نافيًا، فسكت، أطرق رأسه، ثم تنهد قائلًا: «أنا عبد الله». لم

يستطع عبد الله أن يفعل شيئًا لأجلي، وكان يشتمني قائلًا: «ليش عملت هيك، منذ أن سمعت باعتقالك، وأنا أخاف هذه اللحظة»، فقلت له: «يجب أن تسأل نفسك لماذا أنت هنا».

كان يدور مثل قط حبيس، وفجأة فتح باب غرفة التعذيب، ثم غادر. بعد قليل نقلوني إلى غرفة تعذيب أخرى. كل ما استطاع عبد الله أن يفعله هو أنه، في أحد الأيام بعد انتهاء مدة التحقيق، وكنت قد انتقلت إلى السجن في قبو فرع فلسطين، فتم استدعائي إلى غرفة السجانين، وقد كانت هناك مجموعة من الأشياء التي أشار إليها السجان؛ قائلًا: «هذه الأغراض أرسلها إليك أهلك».

حملت الأغراض وخرجت، ثم في المهجع تفحصنا الكنز القادم، فكان بطانية زرقاء بخطوط سوداء، وكروز دخان حمراء طويلة وعلبة حلاوة وغيارين داخليين. يومها، لا أدري لماذا توقعت أن عبد الله هو من أرسلها. التقيت عبد الله مرة أخيرة في دمشق، وقد كنت أعبر ساحة الحجاز، عندما استوقفني شخص بلباس مدني وكرش ضخم، كان ذلك بعد خروجي من السجن بسنة تقريبًا، عانقني وهنأني بخروجي، وعندما أحس بأنني مرتبك، نظر إليّ صارخًا: «ولك ما عرفتني»، فتعرفت إليه، وتعانقنا مرة أخرى. في مقهى الحجاز، جلسنا طويلًا وسألته عن البطانية الزرقاء، فضحك، وقال ممازحًا: «هي أنا بدي ياها بعشرة أمثالها».

كان قد تزوج، وأنجب أربعة أولاد، وقد خسر ابنه الأول في درعا. كنت ما أزال في سورية يومها، ولم أتصل به لأعزيه، تحاشيت كثيرًا طقوس العزاء التي كثرت بعد أن زجّ آل الأسد الجيش السوري في مواجهة الشعب السوري دفاعًا عن كرسي السلطة. بعد أيام،

اتصل بي وعاتبني على عدم تعزيته، وقال لي: «دائمًا تعزي بمن يقتلون في الجهة الأخرى، لماذا لا تعزي بمن يقتلون بالجهة المقابلة؟»، فقلت له: «لأنني ببساطة مقتنع بأن من في جهتكم في موقع المعتدي والظالم، وأن الآخرين هم في موقع الضحية والمظلوم». صمت قليلًا، ثم قال: «وهل تفرح لموتنا؟». قلت: «بالتأكيد لا، يحزنني جدًا، وربما أنا أشد حزنًا عليهم من كثيرين قدموا للتعزية بهم. لا تصدق أن سوريًا يريد سورية وطنًا يفرح بموت سوري آخر».

غادرت سورية، وفي عام 2014 كنت قد وصلت إلى تركيا بعد محطة مصر. رنّ هاتفي من رقم لا أعرفه، وسألني المتصل إن كنت أنا بسام، فأجبته بالإيجاب، وعندما سألته: من أنت؟ ضحك، وقال: «شخص له في ذمتك بطانية زرقاء»، ثم قال لي بعد سلام سريع: «اسمع هل يمكنك مساعدتي؟»، فقلت له: «أنت تعرف أنني لن أتوانى لحظة واحدة عن مساعدتك، إن كان بإمكاني المساعدة»، قال: «ابني الثاني سيهرب من الجيش، هل يمكنك مساعدته؟»، فقلت: «إنني مستعد لمساعدته فور خروجه من سورية، داخل سورية لا يمكنني فعل أي شيء من أجله». صمت قليلًا، ثم قال: «بماذا تنصحني؟». ما أصعب هذا السؤال الذي واجهته مرات عدة، سألته إن كان قادرًا على أن يضمن سلامته وباقي أفراد أسرته في حال هرب ابنه، فكان حائرًا وصمت قليلًا ثم ودّعني، وقبل أن أرد عليه أغلق الخط، وبعد أشهر عدة علمت أن ابنه الثاني قتل في حلب.

رؤوس متلاصقة

انتهى التحقيق معي في فرع فلسطين، بعد خمسة أيام من وصولي إليه. كنت أنتظر وجبة العشاء البائسة، عندما فتح باب الغرفة العارية، إلا من الطاولة المعدنية ولمبات النيون الثلاث المتوهجة. بصوته المتبرم، أمرني السجان المتجهم أن أقترب منه، ووضع العصابة البلاستيكية على عينيّ، ثم سحبني من يدي، وبعد حوالى عشرين خطوة، قال وهو يفتح بابًا معدنيًا: "سننزل درجًا" (زرت الفرع ذاته، بعد خروجي من السجن، من أجل وثيقة لصالح شعبة التجنيد، ووقفت عند الباب المؤدي إلى السجن، وقرأت الجملة المكتوبة فوقه فضحكت، وهي: "وما ظلمناهم، ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين".

هبطنا ما يزيد عن ست عشرة درجة إسمنتية، وهذا ما استطعت عده، ثم توقفنا ليفتح شخص آخر بابًا معدنيًا في نهاية الدرج الهابط، ودفعني من أحضرني دفعة قوية، عبر الباب الذي فُتح، وعاد ليصعد السلم الحجري. أغلق السجان الذي استلمني الباب، وسحبني من يدي بضع خطوات، وأمام باب أحد المهاجع توقف، ونزع الطميشة عن عيني، ثم فتح باب المهجع، ودفعني بقوة إلى داخله قائلًا لأحد ما: "استلم"، وأغلق الباب.

وقفت عند باب المهجع مذهولًا، وكانت عيناي تحاولان استعادة قدرتهما على الرؤية بعد نزع الطميشة عنهما، فلم أر أحدًا في المهجع. في مستوى نظري لم يكن هناك شيء، وحدها جدران عارية خشنة بلون الإسمنت، يضيئها مصباح كهربائي وحيد معلّق إلى سقف المهجع بلون أصفر (اللعنة على اللون الأصفر). على الحائط المقابل لي

تمامًا، رأيت فتحة مغطاة بشبك معدني عُلّقت عليه كومة من الصرر. هبطت بنظري إلى الأسفل، فرأيت مشهدًا سيظل حاضرًا في ذاكرتي ما حييت: هل تتخيل قطعة أرضًا صغيرة مزروعة برؤوس بشرية حية؟ رؤوس ولاشيء إلا الرؤوس، رؤوس مصفوفة متلاصقة، بعيون مفتوحة متفحصة تنظر إليك.

لم يستغرق المشهد إلا ثواني قليلة، وربما ثانية واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا. لا أدري، فما إن أنهى السجان تدوير المفتاح في قفل المهجع وغادر، حتى تحرك هذا الحشد البشري، ففهمت. هل يمكنك أن تتخيل هذا المشهد السريالي، في غرفة مربعة ضيقة لا يتجاوز طولها أربعة الأمتار إلا قليلًا، حيث تتراصف ثلاث وخمسون رأسًا بمئة وست عيون تنظر إليك؟!.

كنت النزيل رقم 54 في مهجع لاتتجاوز مساحته الـ 20 مترًا مربعًا. إنه المهجع رقم 2، وفيه أمضيت ثلاثة أشهر. لن أنسى طوال حياتي المشهد الأول الذي رأيته عند دخولي إلى المهجع، وإني لأظن أن هذه الذكرى ستكون عصية حتى على الزهايمر، وربما على الموت، إن كان هناك ما بعد الموت قليل من الذاكرة. ثلاثة أشهر يمكن لمن يستطيع كتابة تفاصيلها أن يكتب واحدة من أهم روايات الأدب العالمي وأغربها.

تحقيق 1

فتح السجان فتحة الكوة الصغيرة الموجودة في منتصف الباب المعدني؛ قائلًا: "شحادة. حضّر حالك". لم يستطع شحادة النهوض، فما تزال قدماه متورمتين، وهما تنزفان من جولات التعذيب السابقة، ويداه مشلولتان بعد تعذيب طويل على "الكرسي الألماني". ساعده من كان إلى جواره على النهوض، وأوصله إلى الباب. خيّم صمت ثقيل بعد أن أُغلق الباب، فالكل يعرف معنى أن يذهب الإنسان إلى التحقيق. تحاشى الجميع النظر إلى أعين بعضهم بعضًا، فلا أحد يريد أن يُضبط متلبسًا بهذا الرعب كله. غاب شحادة حوالى ساعتين، وكان الخوف يفتك بنا. عندما قرقع المفتاح المعدني في الباب، انشدّت العيون إلى فتحته، فدفعه السجان إلى داخل المهجع، وكان صامتًا ووجهه محتقن ومزّرق، وكان يعضّ على أسنانه بقوة. عندما انصرف السجان، انهار دفعة واحدة، فأسرع الطبيب إليه قائلًا لنا: "إسعاف".

هذا يعني أن ننقسم إلى قسمين، وننحشر في جهتين من المهجع، لنصنع فسحة صغيرة تُمكّن الطبيب من تمديد المريض والتعامل مع حالته. كان لحم قدمي شحادة قد تنتّف: قدمان مفلوعتان ومتورمتان جدًا، ويغطيهما الدم وبقع سوداء وزرقاء، وكلما نزع الطبيب قطعة من ملابسه، كشفت عن جسد غاب لونه، جسد غطته شقوق فاغرة وخطوط عريضة زرق وحمر وسود. بعد دقائق، فتح عينيه ونظر إلينا، ثم بدأت دموعه تنسكب. بعد ساعات، تم تناقل السر في المهجع؛ إن السجان همس في أذن شحادة، وهو

يسحبه من يده إلى غرفة التحقيق: "لا تغيّر ما قلته أبدًا، فقد اعتُقلت زوجتك، وإن غيّرت حرفًا واحدًا سيبقونها هنا". لقد تحمّل شحادة لساعتين من التعذيب الشديد، وبعد شهر علمنا أن زوجته خرجت من السجن.

تحقيق 2

يخرج مؤيد إلى التحقيق مرات كثيرة وتطول مدة التحقيق معه لساعات، وعندما يعود من دون أي علامة تعذيب على جسده، كنا نستغرب. لكنه كان يجيب عن أسئلتنا القلقة والخائفة: "لا شيء يستدعي القلق. إنها إعادة تحقيق روتيني". كان أحيانًا يسرّب إلى منسق الحزب في المهجع أنه رأى فلانًا، وهذا يعني أن هذا الفلان قد اعتُقل. لقد كان الاعتقال الجديد، أي اعتقال جديد، لا بد أن يعيد الأشخاص الذين تربطهم علاقة ما بهذا المعتقل الجديد إلى دوامة الترقب والخوف، فقد يعاد التحقيق معهم مرة أخرى من جديد، وما استطاعوا إخفاءه حتى الآن يصبح معرضًا من جديد إلى الكشف.

لم يطل الأمر، حتى عرفنا سر الساعات المديدة من التحقيق مع مؤيد: لقد كان يخرج مع دوريات المخابرات التي تجوب الشوارع بحثًا عن متخفين، ولأن عناصر المخابرات لا يعرفون وجوه المتخفين، فقد كان هو من يبحث عنهم بعينيه بين المارة، وعندما يرى أحدًا ما، كان يشير إليه، فيعتقله عناصر مخابرات يقبعون في سيارة أخرى.

المصادفة وحدها كشفته، فقد حدث أن أحس أحد المتخفين بسيارة المخابرات التي تمر إلى جانبه، وعندما خففت سرعتها قليلًا، شك بأنهم قد يتعقبونه، فاستدار راجعًا. خاف رئيس الدورية أن يفر منهم، ولم ينتظر إبلاغ السيارة الأخرى، فأرسل عنصرين للإمساك به فورًا. تمكن العنصران الإمساك به، وأوقفوه لثوان قليلة إلى جانب السيارة حتى وصول السيارة الأخرى، وعندها نظر المقبوض عليه إلى داخل السيارة، فرأى مؤيد فيها.

محاولة انتحار

كان الوقت مساء، أحاديث خافتة في المهجع، وصمت في الخارج، وفجأةً دبّت حركة غير عادية في الفسحة التي تتوزع المهاجع على أطرافها، صراخ وشتائم؛ سجان يشتم أحدًا ما، فيرد على شتيمته بلغة لا نفهمها، صمتنا جميعًا ورحنا نصغي إلى حفلة الصراخ التي تدور أمام باب المهجع، ثم فجأةً تغيّر إيقاع الأصوات، وبدا واضحًا أن معركة نشبت. بعد قليل، يبدو أن عناصر عدة من الفرع تمكّنوا من المسجون، فكانت أصوات اللكمات وضربات الكابلات على جسده تُسمع بوضوح، وكان صراخه قويًا، ثم تعالت الأصوات أكثر: "امسكو. امسكو".

لحظة واحدة، وإذ بصوت تحطّم زجاج يشق الليل، فلقد استطاع المسجون الإفلات من أيدي جلاديه، وركض بقوته كلها ليقتحم بجسده الغرفة الزجاجية المخصصة لنوم السجانين. صمت ثقيل لثوان، ثم صراخ السجانين: "الإسعاف. الإسعاف". صوت أقدام تركض، ثم صوت بعيد قليلًا: "شو في ولا؟"، الصوت القريب: "سيدي عم ينزف كتير. رح يموت"، الصوت البعيد: "لجهنم، خليه يموت"، الصوت القريب: "سيدي، هادا أجنبي مو سوري".

عسكر

عسكر رجل باكستاني قاده حظه العاثر إلى فرع فلسطين، وهو رجل متوسط الطول، في نهاية الثلاثينيات من عمره، ولا يتكلم إلا الباكستانية. لذلك، يظل صامتًا طوال الوقت، فما من أحد منا يتكلم الباكستانية. مع أن معتقلي حزب العمل الشيوعي في المهجع الثاني، من الذين يشكلون النسبة العظمى من نزلاء المهجع، يعيشون ضمن نظام خاص بهم، فهم يتشاركون كل شيء: الطعام والدواء والسجائر، بينما يعيش الآخرون كلٌّ وحده، فإن عسكر قرر أن يعيش مع معتقلي الحزب.

لماذا اختار عسكر العيش مع جماعة حزب العمل؟ لا أعرف، مع أن الآخرين يتحاشون العلاقة بهم، فهم عدا عن كونهم سياسيين، مع ما يعنيه هذا من خطر كبير، فهم أيضًا من حزب تستنفر أجهزة المخابرات طاقاتها كلها ضده في حملة اعتقالات واسعة ما تزال مستمرة منذ أشهر. يحمل عسكر صرة ملابسه التي صنعها من قميص داخلي كان لونه أبيضًا في يوم ما، وينقلها معه كيفما تحرك، وعندما يحين موعد النوم يدسها تحت رأسه، وربما تكمن الفائدة الوحيدة لهذه الصرة في كونه يستعملها وسادةً في أثناء النوم.

الصديق المفضل لعسكر هو تاج صاحب الرأس المصاب بالصداع دائمًا، وهو يمضي وقته جالسًا، ويضع يده على رأسه متألمًا من صداع لا يفارقه أبدًا، وعندما تسأله عن حاله ينظر إليك بعينين محمرتين، ثم يهز رأسه حنقًا من سؤالك، ويجيب: "شو بدو يكون حالي، يا أخي، ألم فظيع في رأسي!؟"، ويعود إلى وضعية المتألم الدائمة، ودائمًا يجلس

عسكر إلى جانبه، يجلس بلا حركة، ويحضن صرته المتسخة، وعندما ننظر إليه ونشير إلى تاج يبتسم، ثم يتخذ وضعية مماثلة لوضعية تاج المتألمة، ويفرك رأسه كما يفعل تاج تمامًا ويضحك، يراه تاج وهو يقلده فيضحك، عندئذ يصبح عسكر سعيدًا، فقد ضحك تاج أخيرًا.

لم يتمكن عسكر لفظ اسم تاج جيدًا، فهو يناديه "طاج". يعرف عسكر أنه يلفظه لفظًا غير صحيح، لكن، لأننا أحببنا طريقة لفظه له، فقد حافظ عليها، ما إن يلفظ أحدنا اسم تاج على طريقة عسكر، حتى يضحك عسكر، يعيد الاسم مرة أخرى "طاج" مع حركة تقليد ألم الرأس الذي لا يطاق.

عندما يحين موعد النوم يستنفر المهجع كله، فالمساحة الضيقة تحتم علينا طريقة النوم (التسييف)، وهي طريقة يعرفها السجناء السوريون كلهم، ولكنها تبدو غريبة لمن لا يعرفونها. سننام جميعًا على جانب واحد، كالسيف الذي ينغمد على حده في غمده، ومن يلينا في النوم -من يفترض أنه يواجهنا من جهة معاكسة- سيكون معكوسًا، أي سينام على جانب آخر أيضًا كالسيف، ولكن قدميه ستكونان أمام وجه الشخص الآخر، والآخر قدماه ستكونان أمام وجهه. عسكر هو من يقابل تاج في التسييف، وعلى الرغم من أن تاج أطول من عسكر، فإن عسكر يظل منتظرًا حتى يأخذ تاج مكانه، ليحتل ما يجاوره.

في إحدى الليلات وبعد أن انتهت عملية التسييف الصعبة ،وانحشر الجميع في المساحات الضيقة، وبعد أن جلس المكلفون بالسهر في المساحة الصغيرة المخصصة لهم إلى جانب الباب، وبعد أن أغفى من أغفى وبقي من بقي متيقظًا يجتر ذاكرته، أطلق تاج صرخة مدوية، ما كان من الممكن لأي أحد أن ينهض من مكانه، فمن يخرج

قليلًا من المساحة الضيقة التي انحشر فيها يفقدها فورًا؛ لأن الأجساد المضغوطة ستحتلها فورًا. وقف الساهرون في مكانهم ليستطلعوا الأمر، وكان تاج يشتم عسكر؛ قائلًا: "العمى بعيونو، عضلي إبهام إجري بكل قوته". لكن عسكر نائم ولم يتحرك ولم يفتح عينيه. طلب رئيس المهجع من الجميع النوم والسكوت لأن السجان سيأتي حالًا. فعلًا، فلم تمض ثوان حتى فتح السجان شراقة باب المهجع، ليسأل رئيس المهجع عن الصوت، فرد عليه بأن أحد النائمين كان "مكوبس".

في صباح اليوم التالي، يجلس تاج واضعًا يده على رأسه المصدوع وإلى جانبه يجلس عسكر؛ حاضنًا صرته. عندما نسأله عن طاج يضحك ويضع صرته جانبًا، ثم يشرح لنا بيديه وفمه كيف عض إبهام قدم تاج. يبدو أن قدم تاج، في إحدى حركاتها، اصطدمت بوجه عسكر فآلمته، ولم يكن أمام عسكر إلا أن يقبض عليها بكلتا يديه ويضع إبهامها بين أسنانه، ليعضها بما يستطيع من قوة. يضحك تاج قليلًا، ثم يتذكر رأسه المصاب بالصداع، فيعود إلى صداعه.

هناك صديق آخر لعسكر، وهو شحود. شحود أيضًا لا يتمكن عسكر لفظ اسمه بطريقة صحيحة، فيناديه: "شخود". في ذلك الصباح، أخذوا شحود إلى التحقيق وظل مدة طويلة، وكان صوت التعذيب يصلنا من خلال الفتحات المفضية إلى ممر غرف التحقيق. عندما عاد شحود الذي تعرض لجولة تعذيب قاسية، أفسح الطبيب المعتقل هو الآخر له مكانًا، لكي يعقّم جروحه، ويرى إن كان بإمكانه فعل شيء ما له. في الفسحة التي تمدد شحود فيها والطبيب إلى جانبه كان عسكر يجلس مقرفصًا قربهما، وينظر إلى وجه شحود المتألم ويبكي بصمت.

في الطريق الى سجن صيدنايا

أخيرًا، صدر قرار ترحيلنا إلى سجن صيدنايا، وقد كان ذلك في شهر آذار عام 1988. ربما كان الوقت قبل العاشرة صباحًا عندما فُتح باب المهجع، لنرى في فتحته شخصًا يرتدي ثيابًا مدنية وبيده ورقة. تأفّف من الرائحة التي لا بد أنها انبعثت من داخل المهجع، وابتعد قليلًا من فتحة الباب، ثم أعطى تعليماته بخروج من يذكر اسمه فورًا إلى الفسحة، وبدأ يتلو الأسماء واحدًا بعد الآخر.

تجمعنا في الفسحة، وكنا ستةً وعشرين مسجونًا، وكلنا من حزب العمل الشيوعي، ثم صعدنا الدرج الحجري إلى ساحة الفرع، وهناك حافلة كانت في انتظارنا. بعد حوالى دقيقتين من تحرك الحافلة توقفت، ثم طُلب منا النزول، فكانت محطتنا الأولى، وهي فرع التحقيق العسكري. هنا سنمضي خمسة أيام فقط، ويقوم خلالها الفرع المذكور بتصويرنا مع أرقام نحملها، ومنذ هذه اللحظة سيتم عدنا مسجونين، فلم نعد على ذمة التحقيق، كما يقال في سورية. هنا، سيفتح ملف خاص بكل منا، ونُصوَّر، كل منا بوضعيات مختلفة مع لوحة كتب عليها رقم ورمز خاصان، ثم يُقرر فرزنا إلى السجون.

كانت الأيام الخمسة تلك أقسى من أيام فرع فلسطين، فالازدحام في فرع التحقيق لا يمكن تخيله، والمكان لا يتسع للنوم حتى بطريقة التسييف. لذلك، قسم المسجونون أنفسهم إلى ثلاث دفعات: دفعة تقف لثماني ساعات، ودفعة ثانية خلال الوقت نفسه تجلس في مساحة من المهجع، ودفعة ثالثة تنام بطريقة التسييف في المساحة المتبقية من المهجع.

هكذا وبعد ثماني ساعات، تنهض المجموعة النائمة لتقف لثماني ساعات، بينما تجلس المجموعة التي كانت واقفة وتنام المجموعة التي كانت جالسة. في فرع التحقيق نصاب بالجرب، وأما القمل فقد كنا نحمله معنا من فرع فلسطين. بعد الانتهاء من أرشفة ملفاتنا، نغادر إلى سجن صيدنايا في سيارة زيل عسكرية مخصصة لنقل المسجونين، وهناك سنصبح مسجونين فقط. عشر سنوات كاملة أمضيتها في سجن صيدنايا، وصلته في السابعة والعشرين من عمري وغادرته وأنا في السابعة والثلاثين.. عشر سنوات سلخها حافظ الأسد من عمري. هكذا بكل بساطة "لا شور ولا دستور!".

بعد أن قرروا الإفراج عني وعندما كنت أغادر آخر البوابات الكثيرة لآخر سجن من السجون الكثيرة، وعلى بعد أمتار من حريتي التي سأتعرف إليها، بما هي مساحات أوسع لا غير، قال لي رجل المخابرات الذي يسلمني أشيائي القليلة التي أخذوها عند بداية اعتقالي، وهو يمد إليّ قلمًا لأوقع على استلامها: "يجب أن تشكر السيد الرئيس طيلة حياتك على خروجك من السجن". لم يكن أمامي إلا أن أهز رأسي وأصمت، ولم تكن تتسع حريتي الوليدة إلا للصمت.

قصص سجن صيدنايا

سترد في النص مفردات تم اشتقاقها في السجن، ولن تكون مفهومة لمن لم يعش تجربة السجن، وربما لايفهمها حتى من عاشوا في سجون أخرى، وهي باختصار اصطلاحات اخترعها المسجونون بسبب حاجتهم إلى ذلك، وسأوضح هنا بعضًا مما سيرد في هذه القصص:

مصطلحات سجنية

الجناح: هو قسم من السجن مكوّن من عشرة مهاجع، ويحتوي سجن صيدنايا على ثمانية عشر جناحًا في تصميمه الأساسي، ولكن إدارة السجن أدخلت تعديلات كثيرة فيه.

رئيس الجناح: هو الشخص الذي يتم عبره التواصل مع إدارة السجن، وغالبًا ما يتم تعيينه من قبل إدارة السجن ليكون عينها على باقي المسجونين، واستطاع معتقلو حزب العمل أن يفرضوا من ينتخبونه لرئاسة الجناح، وليس من تعيّنه إدارة السجن.

المهجع: غرفة مستطيلة الشكل طولها ثمانية أمتار وعرضها ستة أمتار، وفي إحدى زواياها تم اقتطاع مربع طول ضلعه متران، وفي هذا المربع يوجد التواليت والحمام والمغسلة.

لجنة الجناح: تسمية خاصة بمعتقلي حزب العمل الشيوعي، وقد اخترعوها للدلالة على من يتم انتخابهم لإدارة شؤون الجناح المالية

والمعيشية، ووحدهم معتقلو حزب العمل من عاشوا في السجن تجربة الحياة المشتركة الجماعية. باختصار: إن كل ما تملكه وما يأتي في زياراتك هو ملك للجميع. غالبًا ما تكون لجنة الجناح مكوّنة من ثلاثة أشخاص، ويتم استبدالها كل مدة زمنية.

لجنة المهجع: جاءت التسمية من سجن تدمر؛ لأن معتقلي حزب العمل جميعهم كانوا قد جُمعوا في مكان واحد في تدمر، وهو المستوصف. لقد كان عدد أفراد هذه اللجنة ثلاثة، وهي لجنة منتخبة قد تستمر شهرًا أو شهرين أو ثلاثة، وقد كانت تشرف على إدارة شؤون المهجع المعيشية، وتنظمها، وتقرّر بشأنها قرارات نافذة، إلا إذا استطاع معترض، بعد أن عجز عن الحصول على موافقة اللجنة أو أغلبيتها، أن يحصل على أغلب أصوات الهيئة، فيبطل قرار اللجنة.

مثلًا: اقتراح وجبة شاي إضافية أو قهوة إذا توافرت أو سيكارة، وهي اقتراحات تكون عادة بعد إغلاق الأبواب، ومثلًا: إذا تمت الموافقة على وجبة شاي إضافية، فإن هذا يعني رائحة الكاز ودخانه (يصنع الشاي على بابور الكاز)، وأخذ موافقة الذين تكون أماكن نومهم في الممرات؛ لأنهم سيضطرون إلى ترتيب أشيائهم والقعود عليها كالكراسي حتى انتهاء وليمة الشاي.

اللجنة تشرف على عمل السخرة التي تتألف من ثلاثة، وأحدهم لا بد أن يكون مبادرًا وعمليًا ونشيطًا، وقد يكون أحدهم كهلًا أو مريضًا غير عاجز، والسخرة هي التي تقوم بأعمال المهجع كلها، من طبخ وتنظيف وتنظيم دور الاستحمام. إلخ، ويبدأ عملها صباحًا، وينتهي بعد وجبة العشاء، ويساعد السخرة دائمًا متطوعون.

عندما انتقل المعتقلون من سجن تدمر إلى سجن صيدنايا، وتوزعوا في مهاجع منفصلة وصغيرة، خفض عدد أفراد اللجنة إلى عضو واحد مع الاحتفاظ بالتسمية، وظلت مهماتها هي نفسها مهمة الإداري الذي يدير شؤون المهجع المعيشية، ويتابع حقوق المهجع وواجباته مع لجنة الهيئة العامة التي تتألف من ثلاثة أيضًا، وهو يشرف وينسق مع سخرة المهجع التي صارت واحدًا يساعده عادة متطوعون وخبراء.

السخرة: هي الشخص الذي يكون دوره في خدمة المهجع مدة يوم واحد فقط، ومن مهماته: تنظيف الحمامات والممر بين الفرشات، وتحضير الطعام، والجلي، واستلام المواد القادمة إلى المهجع من لجنة الهيئة العامة، بالتعاون والتنسيق مع لجنة المهجع ومساعدة متطوعين وخبراء دومًا.

البريد: "لايروح فكركن لبعيد"، فهو ليس بريدًا من العالم الخارجي، إنه البريد الذي اخترعناه للتواصل في ما بيننا داخل السجن، وقد نشأت الحاجة إليه عندما وُزع معتقلو حزب العمل في أجنحة عدة من السجن، بعد أحد الإضرابات التي قاموا بها. هناك وسائل وأساليب عدة للبريد، فمثلًا: إذا كانت المجموعات التي يجري البريد بينها في أجنحة فوق بعضها بعضًا طابقيًا، أي إذا كانوا في الطابق الأول ألف يمين أو ألف يسار، وفي الطابق الثاني ألف يمين أو ألف يسار، وفي الطابق الثالث ألف يمين أو ألف يسار، فإن البريد ينتقل عبر كيس قماشي يتم إنزاله عبر المناور وفتحات التهوية في أوقات محددة، وهي غالبًا مدة تبديل الحراسات على سطح السجن. أما إذا كانت المجموعات موزعة على طوابق متباعدة، أي أن تكون مجموعة في أحد أجنحة (أ) وثانية في أحد أجنحة (ب) وثالثة

في أحد أجنحة (ج)، فإن الاتصال البريدي لا يمكن أن يكون إلا عبر شخص يمكنه لسبب ما الوصول إلى الأجنحة: طبيب أو أحيانًا زيارات داخلية بين إخوة في أجنحة مختلفة أو شرطي متعاون... إلخ.

الزنازين: هي غرف صغيرة للعزل العقابي أو لمن تريد أجهزة الأمن أن لايعرف أحد عن وجوده في السجون السورية، وهي في الطابق الأسفل من بناء السجن المكوّن من خمسة طوابق: الطوابق الثلاثة العليا مخصصة لإقامة المسجونين، وهي كلها فوق الأرض، وأما الطابقان السفليان فهما طابق المطعم الذي لم نستعمله أبدًا مع الحمامات، وطابق الزنزانات والمنفردات.

الشرّاقة: نافذة صغيرة مربعة الشكل لا يتجاوز طول ضلعها 25 سم، وتتوضع في منتصف باب المهجع الحديدي، ولها قطعة معدنية متحركة تغلقها تمامًا ،ولا تفتح إلا من الخارج، ومن خلالها يستطيع السجان معرفة ما بداخل المهجع، من دون أن يفتح باب المهجع.

الطمّيشة: قطعة من البلاستيك السميك (2- 3 مم) يتصل طرفاها برباط مطاطي، وتوضع على عيني المسجون كي لايرى ما حوله، ويساعد الرباط المطاطي في تثبيتها على رأس المسجون.

القصعة: وعاء من الألمنيوم يستعمل في وحدات الجيش السوري كلها، وفي السجون أيضًا، ويتم وضع الطعام المخصص لمجموعات صغيرة فيه.

البلو: وعاء ضخم يصنع من الستانلس ستيل أو الألمنيوم غالبًا، ويتم الطبخ فيه ونقل الطعام أيضًا لأعداد كبيرة من الجنود أو المسجونين.

قصعات

وصلنا إلى سجن صيدنايا بعد الظهر بقليل، وفي صالة واسعة، لا شيء فيها إلا الجدران والأعمدة، وقفنا صفًا واحدًا ووجوهنا إلى الحائط. لم يكن لدينا ما نحمله، بعضنا يحمل أحذيته، وآخر يحمل بعض الثياب، أما أنا فكنت أتأبط البطانية الزرقاء ذات الخطوط السوداء التي بعثها إلي ابن قريتي السجان عبد الله.

بعد أن بدأت عملية الترحيل قررنا، ونحن في فرع فلسطين، أن يأخذ المرحَّلون معهم كل ما يستطيعون، فهم ذاهبون إلى المجهول (لم نكن نعرف إلى أين نُرحّل) وقد يحتاجون إليها هناك أكثر من حاجة من يبقى في الفرع. ينتظم خلفنا نسق من عناصر الشرطة العسكرية المدججين بسياطهم السوداء العريضة، وهم ينتظرون شيئًا ما، ثم فجأة يلعلع صوت أحدهم صائحًا: "انتبه.. استاااعد"، ويخبط عناصر الشرطة الأرض بأحذيتهم العسكرية، ثم يصرخ أحدهم: "جاهز للتفتيش سيدي المقدم".

طلب المقدم منا خلع ثيابنا كلها فخلعناها، وعندما وقفنا جميعًا عراةً تمامًا طلب منا أن نقرفص، ثم نقف مرة ثانية وثالثة. في ما بعد سنعرف أن هذه الحركات تُسمى حركات الأمان، من أجل أن تتأكد إدارة السجن من أننا لا نخفي شيئًا في أمعائنا. بعد أن استعرض "سيادة المقدم" عرينا ومؤخراتنا وأمعاءنا المأمونة، اطمأنّ وأمرنا بارتداء ثيابنا، وعندما انتهينا عدنا إلى الوقوف صفًا واحدًا، ووجوهنا إلى الحائط.

في السجون السورية ومن أجل المحافظة على سمعة هذه السجون وهويتها وعراقتها، لا بد للقادم الجديد من "التشريفة" أو "الاستقبال"، أي لا بد من حفلة من الضرب والشتائم والجلد. هكذا، ما إن أصبحنا جاهزين حتى طُلب منا الاستدارة، لنواجه وجوه عناصر الشرطة المتجهمة والمقدم القصير بكرشه الضخم ووجهه الذي أشار به إلى أولنا في الصف ليتقدم، فتقدم.

سطّحونا على ظهورنا، ورفعوا أقدامنا، بعد أن أدخلوها بين عصا وحبل مشدود إلى طرفيها، وحينها أمسك بطرفي العصا اثنان من أفراد الشرطة، ليبرمانها فيضيق الحبل حتى يضغط تمامًا على الرجلين، ويبدأ اثنان آخران جلد القدمين بسياطهما. أعترف الآن بمهارة الجلادين اللذين كانا يجلداننا وحرفيتهما، إذ ما إن يعطي المقدم إشارة البدء، حتى تنطلق آلة منتظمة متناوبة تعمل بإيقاع مضبوط، بلا أي خلل؛ جلدة من الأول على إحدى القدمين يعقبها جلدة من الثاني على القدم الأخرى، تناوب مذهل بدقته وإيقاعه: "دقة سويسرية بأيد سورية".

بعد استقبالهم العريق صعدنا درجًا، لنلج صالة أخرى عارية أيضًا. هناك، طُلب منا أن نجلس وننتظر. بقينا وحدنا وكان الاتساع مذهلًا، فنحن القادمين من أشد الأمكنة ضيقًا تجمعنا في زاوية من الصالة وفرشنا بطانيتي الزرقاء فيها، وتكومنا فوقها نتحسس أقدامنا التي كانت ما تزال تتوهج بألم سياطهم. بعد نحو ساعتين، أحضروا لنا كدسًا من أرغفة الخبز وقصعتين، في إحداهما برغل وفي الأخرى سائل أحمر توقعنا، باستعمال حاسة الشم، أنه مرقة قرنبيط؛ لأننا لم نجد في السائل ما يؤكد فرضية القرنبيط أو ينفيها.

بعد الظهر، يقتحم العقيد مدير السجن الصالة؛ محاطًا بعناصره، ليتحفنا بمحاضرة سريالية حول حكمة القيادة ومدى حرصها علينا، فلولاها لكنا قد أصبحنا متطرفين، وربما حملنا السلاح، وعندها لن يكون أمام القيادة من خيار سوى إعدامنا بموجب القانون، وكي لا تصل القيادة إلى مرحلة إعدامنا قررت أن تستبق الأمور فتعتقلنا، ثم تعيد إصلاحنا فتعيدنا مواطنين صالحين.

بعد مغادرة مدير السجن، يستلم كل منا أربع بطانيات عسكرية وعازل، ونمشي رتلًا أحاديًا وراء مساعد الانضباط، لندخل إلى السجن ونمشي أمام مهاجع يمكننا أن نعرف أنها مسكونة من عيون لمحناها تتلصّص علينا، ومن ثياب رأيناها في الممر منشورة على صفيح الأبواب الموصدة وأحذية، فشعرنا بالألفة، إذ ليس هناك ما يبعث على الأمان أكثر من أن تعرف أن هناك آخرين يشاركونك هذا القبر المصفح بالإسمنت والحديد.

أمام أحد المهاجع، يتوقف المساعد ويأمر أحد العساكر بفتح بابه فيدخلوننا إليه، ثم يغادر المساعد ومرافقوه، بعد أن يقفلوا الباب. ستة وعشرون مسجونًا يتمعنون في هذا الاتساع الهائل: مهجع مساحته ثمانية وأربعون مترًا، يا للرفاهية! لم نكن نحلم بأكثر من هذا، إذ يمكننا الآن أن ننام ونتقلّب في نومنا. لكن المضحك والمبكي، في الآن ذاته، هو أننا وجدنا أنفسنا بعد قليل نتجمع كلنا في جهة واحدة من المهجع، ونترك نصفه الآخر خاليًا.

في الصباح، وما إن قرقع المفتاح في قفل الباب الرئيس للجناح، حتى رفعنا رؤوسنا، ثم بدأت أقفال المهاجع تقرقع والأبواب تنفتح، واحدًا بعد الآخر. لم يطل الأمر حتى دار المفتاح في قفل مهجعنا

وظل الباب مغلقًا، ولكنه لم يعد مقفولًا ولم نعرف، نحن القادمين حديثًا، ماذا يعني هذا. كنا نسترق النظر من خلال القضبان المعدنية في أسفل الباب، في الجهة الملاصقة لبلاط الممر. بدأت حركة قليلة في الممر، فأشخاص يتحركون وهم يرتدون بيجامات مدنية. يقترب أحدهم من باب مهجعنا ويفتحه، ثم يقول: "صباح الخير، قصعات إذا سمحتو"، وغادر.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا مذهولين. "صباح الخير!" إنها تعني أنه ليس من طرف النظام، فليس من النظام بشيء من يقول لمسجونين: صباح الخير. لكنه يتحرك بسهولة! وماذا يقصد بقوله قصعات؟ كان نصر سباقًا في استكشاف الوضع؛ فقد نهض وفتح الباب، وخرج إلى الممر وغاب قليلًا، ثم عاد لينقل إلينا الخبر: بإمكاننا أن نخرج ونمشي في الممر كما نشاء. خرجت من باب المهجع، وكان عدد قليل من المسجونين القدامى قد استيقظ. كانوا منهمكين في حل مشكلة عدم امتلاكنا أي شيء، فليس لدينا لا قصعات ولا ملاعق ولا كاسات ولا أي شيء. بعد قليل يستيقظ الجميع، وتنقلب حياتنا تمامًا. لكن الأمر لن يدوم طويلًا، فبعد مدة قصيرة نُقلنا جميعًا، نحن المعتقلين حديثًا، إلى جناح واحد ليس لأحد فيه صلة بالعالم الخارجي.

الصورة

صورةٌ قذف بها أحد السجّانين عبر قضبان الباب الرئيس للجناح، وابتعد مسرعًا من دون أية كلمة كي لا يراه أحد، فينتقل ببساطة شديدة إلى العيش خلف القضبان مثلنا. الصورة التي كانت «مجعلكة» قليلًا في جيب الشرطي، هي صورة طفل جميل، بسنواته التي لا تزيد عن ثلاث ولباسه الأزرق الفاتح وشعره الأشقر وعينيه العسليتين. طفل يسكن في الصورة مبتسمًا، ويمد إحدى يديه التي بدت، بأصابعها الناعمة الصغيرة، كأنها تحاول الوصول إلى أحد ما.

في الممر الذي يمتد أمام المهاجع العشرة، وهو ما يظل المسجونون يمشون عبر أمتاره الستين جيئة وذهابًا طوال النهار، انقضّ أقربهم إلى الباب متناولًا الصورة، وابتعد مسرعًا، كي لا يراه أحد عبر بوابة الجناح، الجناح الذي يزيد عدد المسجونين فيه على مئتين وثلاثين مسجونًا، اجتاحته الصورة كموجة تسونامي، فالجميع يريد رؤية الصورة، والصورة تنتقل من يد إلى يد ومن لهفة إلى أخرى، والكل يتمعّن طويلًا في الصورة ويبقيها في يده وأمام عينه، حتى يصرخ آخر في انتظار رؤيتها.

لم يستطيع أحد منا أن يقول يقينًا إن هذه الصورة تخصه، وهكذا لم نكن قادرين على تحديد المسجون الذي ستسحبه الصورة من رتابة حياتنا القاتلة، ثم تقرّر أن تبقى الصورة مع رئيس الجناح حتى حل اللغز، وفي تلك الليلة كانت الصورة هي الشغل الشاغل لمئتين وثلاثين مسجونًا، وكانوا قد عُزلوا عن أي اتصال بالحياة منذ سنوات.

صورة الطفل صاحب العينين العسليتين الذي يمد يده إلى أحد ما، كادت أن تحدث مشكلة في الجناح، ففي صباح اليوم التالي انقلب الجناح رأسًا على عقب، فلقد تقدم كثيرون مدّعين أنها ربما، لا بد، على الأغلب أنها لهم، ما من أحد إلا ظن أن قربى ما تربطه بهذا الطفل الذي يقيم في الصورة: ربما يكون ابنه الذي ولد بعد اعتقاله أو ابن أخيه الذي كانت امرأته حاملًا به عندما اعتُقل أو إنه ابن صديقه أو ابن أخته التي ربما تزوجت أو، أو...

هكذا، عادت الصورة لتنتقل من مهجع إلى آخر ومن مسجون إلى آخر من دون أن تفقد في انتقالها المتكرر قدرتها على رقرقة الدمع في العيون، وقدرتها على إثارة طوفانات الحنين في داخل الأرواح المنفية. وحده الطفل ظلّ يحافظ هادئًا على ابتسامته ويده الممدودة إلى الجميع. إلى أحد ما من بين الجميع. نام الجناح لليلتين متتاليتين مشغولًا بالصورة، وكل أحد فيه يتحدث عن الصورة، وكل واحد فيه يفكر بالصورة. في اليوم الثالث اقترب السجان الذي قذف الصورة عبر قضبان الباب الرئيس للجناح، وطلب رئيس الجناح، ثم همس له: «الصورة هي لابن فلان»، وابتعد مسرعًا.

نقل رئيس الجناح ما سمعه من الشرطي إلى من كانوا الأقرب إليه، فصرخ أحد ما بما سمعه، فراح الخبر ينتقل بسرعة، وخرج من كانوا في المهاجع مستطلعين، وهكذا راح الجميع يتسابقون في اتجاه مهجع فلان. اكتظ المهجع بالحشد، وكان فلان يجلس فوق فراشه ممسكًا بالصورة؛ متمعنًا فيها وحوله دائرة من الصمت الثقيل الذي يلف الجميع. كلهم يحدقون إلى وجهه المحتقن والمشدود، وهم يراقبون بصمت، بصمت، كانت دمعة تتجمع في عينيه، ثم بهدوء شديد قرّب الصورة بيدين مرتعشتين إلى فمه، وقبّلها، وعلى وجهه بدأت تنحدر دموعه بصمت.

جنون القراءة

في المرحلة الأولى من وجودنا في سجن صيدنايا، كنا معزولين وممنوعين من الزيارات، وليس لدينا أي شيء يمكن لنا أن نواجه به الوقت الراكد الطويل، وفي أحد الأيام تمكّن رفاقنا القدماء الموجودون في جناح آخر، بمساعدة سجان متعاطف معنا، أن يهرّبوا لنا كتاب (النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية لحسين مروة) وهو كتاب ضخم طُبع في مجلدين، وتزيد صفحاته في تلك الطبعة عن 600 صفحة.

هنا، حدثت المشكلة: كيف سيقرأ كتابًا واحدًا ما يزيد عن 230 مسجونًا متلهفًا إلى القراءة؟ إن أول ما فعلناه لحل هذا المشكل هو أننا حولنا الكتاب إلى أجزاء، أي: إننا فصلنا كل فصل من الكتاب على حدة ووصنعنا له غلافًا، وكتبنا على الغلاف عنوان الكتاب واسم الكاتب ورقم الجزء، وهكذا أصبح تداوله أسهل.

لكن ولأن الانتظار يجعل الوقت طويلًا جدًا، فقد اقترح بعض الرفاق أن ننسخ نسخة ثانية. لقد بدا الاقتراح جنونًا محضًا، ولكن التصويت على المشروع جاء لصالح تنفيذه، فاستنفر أصحاب الشأن والعلاقات الخارجية المستترة، واستطاعوا بصعوبة شديدة أن يحصلوا على الورق والأقلام اللازمة. هكذا، شُكّل اثنا عشر فريقًا للكتابة، ونسخوا الكتاب نسخة ثانية مكتوبة بخط اليد. نعم، في عام 1988 سخ مسجونون كتابًا تزيد صفحاته على 600 صفحة من القطع الكبير، بخط اليد، من أجل أن يقرؤوه في أسرع وقت ممكن.

المساعد زهير وعضو البرلمان

في نهاية ثمانينيّات القرن الماضي، كنّا نحو 230 مسجونا في أحد أجنحة سجن صيدنايا العسكريّ، وكنّا جميعًا معتقلين باسم حزب العمل الشيوعي في سورية، وكان قد مضى على اعتقالنا ما يزيد على سنتين، من دون أن يعرف أحد جوابًا على السؤالين: أين نحن؟ وهل نحن على قيد الحياة أم لا؟ وفي صباح أحد الأيّام، وصل مساعد الانضباط إلى باب الجناح وطلب من رئيس الجناح أن يعلم المسجون إياد بأن يجهز نفسه للخروج من الجناح.

إن طلبًا كهذا يبعث الرعب في النفوس والأجساد، فهذا يعني إعادة التحقيق، وإعادة التحقيق تعني أنّ هناك حملة اعتقالات جديدة، وتعني ألف هاجس وهاجس. وقفنا جميعًا قلقين، ورحنا نشجّع إياد ونهوّن عليه، وكان يحاول أن يتماسك وأن يبدو هادئًا. عشنا تلك الليلة في حيرة، وكنا نستعيد لحظات الاعتقال والتعذيب، وآلاف الأسئلة تتجمّع من دون أن نعرف كيف نجيب عليها. لم يعد إياد في اليوم نفسه والذي تلاه، ثم عاد في الثالث، وقد وقف عند باب الجناح برأسه الحليقة (على الصفر) ووجهه الشاحب، ولكنّه كان مبتسمًا، ويحمل بيده كيسًا بلاستيكيًّا، من تلك الأكياس التي تحمل رائحة الحياة. ما الذي حصل لإياد؟ لماذا هو شاحب وحليق؟ أيّ لغز يخفيه في كيسه الباذخ؟

القصّة ببساطة: والد إياد الذي سافر منذ ربع قرن إلى البرازيل، وكان عمر إياد حينها لا يتجاوز سنتين، قد استقرّ هناك، وعمل بجد، ثمّ حصل على الجنسيّة، واستطاع أن يصبح عضوًا في البرلمان

البرازيليّ، ولأنّ زوجته الأولى (أمّ إياد) رفضت أن تغادر سورية، فقد تزوّج هناك واستقرّ بصورة نهائيّة، ولكنّه ظلّ على تواصل دائم مع عائلته. وُجّهت دعوة من مجلس الشعب السوري إلى البرلمان البرازيلي لزيارة وفد من أعضائه إلى سورية، وكان من الطبيعي أن يكون البرلمانيون البرازيليون من أصل سوري من ضمن هذا الوفد.

إذًا، لقد جاء والد إياد ضمن الوفد البرلماني البرازيلي المدعو إلى زيارة سورية، وفي برنامج الوفد الضيف كان هناك لقاء بـ "رئيس الجمهورية"، فأخبر أبو إياد العائلة بأنّه قادم لزيارة سورية، وسيلتقي "الرئيس"، ويطلب منه معرفة مصير إياد، ويحاول إطلاق سراحه، إن استطاع. في نهاية اللقاء الذي جمع "رئيس الجمهورية" بالوفد البرلماني، طلب الأب لقاءً خاصًّا قصيرًا بـ "الرئيس"، وسأل عن ابنه: "هل هو حيّ أم ميت؟" استغرب "السيّد الرئيس" الاعتقال، ثمّ طلب فورًا من مدير مكتبه معرفة مصيره، ولم يطل الأمر حتّى طمأنه إلى أنّ ابنه بخير وأن بإمكانه رؤيته قبل سفره، وأنّه سيأمر بإطلاق سراحه بعد مدة قصيرة.

هكذا، اتّصل أحد ما من مكتب "رئيس الجمهوريّة" برئيس فرع الشرطة العسكريّة الذي اتّصل بمدير سجن صيدنايا العسكريّ، من أجل ترتيب مقابلة لائقة تعكس الوضع الإنسانيّ في السجون السوريّة ومدى تحضّرها ورقيّها. استدعى مدير السجن مساعد الانضباط المناوب، ومصادفةً كان المساعد المناوب يومها هو المساعد زهير الذي قد يكون أغبى عسكري تعرفه السجون السوريّة. أمر مدير السجن المساعد بأن يحضر المسجون إياد من جناحه، ويعزله، و"يزبّطه على الـ 24".

كما هي العادة، ووفق مصطلحات السجون السوريّة، فقد فهم المساعد زهير أنّ كلمة "زبّطه" تعني عقوبة نوعيّة لهذا الشخص. هكذا، ذهب إلى الجناح الذي يوجد فيه إياد، وأخرجه من الجناح إلى الزنزانة فورًا، حيث حلق شعره "على الصفر" ثمّ أكرمه بـ "دولاب من كعب الدست"، وأغلق باب الزنزانة وخرج. في اليوم التالي، وكما هي العادة، كان إياد مع كلّ وجبة طعام يتعرّض لحفلة تعذيب مدعومة، فمدير السجن هو من قال له "زبّطه". في يوم المقابلة، استدعى مدير السجن المساعد زهير؛ قائلًا: "زبّطو منيح للموقوف إياد؟". زهير: "يا سيدي حلقتلو ع الصفر، وكلّ وجبة دولاب". مدير السجن: "يا حمار، أنا قلتلك تعمل هيك؟ العمى بعيونك العمى، كيف بدّو يشوفو أبوه هلق؟". تراكض مدير السجن والمساعد والعساكر إلى الزنزانات، فأخرجوا إياد، وحمّموه في استراحة مدير السجن، وألبسوه بيجامة أحد أفراد الشرطة.

قبل ذهابه إلى رؤية والده، كان على إياد أن يصغي إلى تعليمات مدير السجن، وكان صوته هادئًا، وابتسامة خفيفة ترتسم على وجهه: "شو بتشتغل يا إياد؟". إياد: "مهندس، مهندس ميكانيك". مدير السجن: "حلو، يعني رح تفهم علي منيح، اسمع يا ابني اللي رح قلك ياه، أنت يا ابني حلقت شعرك على الصفر برغبتك، ووضعك الصحي يا ابني ممتاز، والحياة هنا رائعة، وتعامل إدارة السجن معكن ممتاز، مفهوم؟". يهز إياد رأسه موافقًا، فيواصل مدير السجن: "الآلام والعرج في مشيتك يا ابني سببه أنك كنت تلعب رياضة، وتعرّضت لشدّ عضلي، واضح؟"، فيهز إياد رأسه موافقًا مرة أخرى.

فجأةً، يتجهم وجه مدير السجن ويشد قامته القصيرة إلى الأعلى، وبصوت مشحون بالتهديد، يقول: "ليك ولك جحش، إذا بتحكي

كلمة غير متل ما قلتلك، مو بس برجعك ع الزنزانة، قسمًا بالله بحط بيّك معك، روح انقلع ع الزيارة، ولا تنسى تاخد البدلة اللي جايبلك ياها بيّك". يضحك ساخرًا، ثم يواصل: "قال منشان تطلع فيها من السجن!". عاد إياد ومعه بدلته الجديدة التي لم يلبسها؛ لأنّه ظلّ بعد تلك الزيارة البرلمانيّة سنينًا عدة في ذلك السجن.

المسجون المحمول

في عام 1989، كنا في سجن صيدنايا في الطابق الثالث (أ يسار)، وفي أحد الأيام فوجئنا بأربعة عناصر من الشرطة العسكرية يحملون حملًا ما ببطانية عسكرية. كانوا يمسكون بالبطانية من أطرافها الأربعة ويقتربون من جناحنا، وعندما وصلوا وضعوا البطانية على الأرض، وكان من بداخلها شخص هامد بلا أي حركة، وقد كان نحيلًا كأنه شبح. فتحوا الباب، وأمرونا بإدخاله إلى الجناح.

توقع أغلبنا أن يكون من رفاقنا، وأنه قد يكون معتقلًا منذ مدة طويلة تعرض خلالها لتعذيب شديد، فوصل به الحال إلى ما وصل. باشر رفاقنا الأطباء والممرضون عملهم فورًا، ولقد كان واضحًا أن الشخص الذي بين أيديهم يعاني هزالًا شديدًا، وبنيته ضعيفة جدًا، وغير قادر على الحركة، فوضع في مهجع الممرض الذي تكفّل برعايته.

مرت أشهر والعلاج مستمر: نظام غذائي خاص به، وعلاج فيزيائي لإعادة بعض القوة إلى عضلاته الضامرة، ومراقبة دائمة. كانت صحته تتحسن شيئًا فشيئًا، وبدأت قصته الغامضة تنجلي لنا: الشاب هو من درعا، واسمه راتب من عائلة المصري، وهي عائلة معروفة في درعا. كان راتب يدرس في خارج سورية، وكعادته في الصيف كان يأتي إلى زيارة أهله، وفي المطار تم توقيفه بناءً على تقرير من أحد المخبرين.

لقد اعتقله فرع المخابرات الجوية، ثم بعد مدة نُقل إلى جهة مجهولة توقع بعضهم أنها في منطقة أبي الشامات، وهي منشأة كاملة تحت

الأرض، حيث تجرى فيها تجارب الأسلحة الكيماوية والجرثومية على المسجونين. بالتأكيد، لايخرج أحد حيًا من مختبرات الموت هذه، ولكن يبدو أن علاقات والده وقدراته المالية مكّناه الحصول على وعد برؤيته (قيل إن المبلغ الذي دفعه والده هو أربعة ملايين ليرة سورية فقط، أي حوالى تسعين ألف دولار حينئذ).

من أجل أن يراه والده، كان عليهم أن يعيدوه من مختبر أبي الشامات ويضعوه في سجن، ريثما يسترد شيئًا من عافيته. هكذا، نقلوه إلى سجن صيدنايا، واختار مدير السجن جناحنا، فلدينا من الأطباء ومساعديهم ما يكفي. استطاع راتب العودة إلى الحياة بعد أشهر عدة، وكانت العناية الطبية ممتازة خلالها، فبدأ يستعيد قدراته العضلية، وأما خطواته الأولى فقد كانت حدثًا شديد الأهمية لنا. بعد أن أصبح راتب قادرًا على الحركة زار مهاجعنا، ونام فيها كلها، وكنا نتحلق حوله ليحكي لنا عن سجون أخرى، سجون سيذكرها التاريخ يومًا على أنها الأبشع في تاريخ البشرية الحديث. يخرج راتب قبلنا من السجن، نأكل، ونحن نتذكره، قطع الحلوى التي أرسلها لنا في إحدى الزيارات.

سرياليات 1

الزمان: عام 1990

المكان: البهو السداسي الشكل الذي تتفرع عنه أماكن إقامة المسجونين في سجن صيدنايا.

الحدث: مسجونون، بثياب مهترئة متسخة، وأقدام عارية ووجوه شاحبة، محاطون بأفراد من الشرطة العسكرية، وهم يحملون سياطًا عريضة.

المسجونون يدورون داخل البهو؛ هاتفين بأقصى ما يستطيعون وسط قهقهات الحرس: «بالروح بالدم نفديك يا حافظ»، بينما تنهال السياط على الأجساد المتلاصقة المتدافعة في حلقة دوران لا تنتهي.

تفاصيل صباحية

قذفتني قهقهة مدوية خارج قوقعة النوم التي كنت أتكور فيها، ولا أدري كيف خرجت من غطائي الذي صنعته، على أنه كيس ضيق، وكيف تجاوزت طابور النائمين، ووقفت وراء أبي الزوز الذي كان يتربع فوق فراشه مديرًا ظهره للمهجع، وواضعًا وجهه على بعد سنتيمترات من الحائط. أطلت رؤوس عدة من تحت أغطيتها، وعندما رأتني إلى جانبه، عادت لتختفي من جديد. كانت العتمة توشك أن تتلاشى، والفجر الرصاصي يسكب برودته القارسة فوق الأغطية العسكرية الكريهة التي غطت كل شيء: الأرض والبشر، وحتى الفتحات السفلية للأبواب.

أدار أبو الزوز رأسه محدقًا إلى أنحاء المهجع، وعندما رآني أقف خلفه نظر إلي مستاءً، وكان وجهه محتقنًا وعيناه تهتزان ككرتين صغيرتين فوق سطح مياه مضطرب، عاد إلى حائطه، فدوّت من جديد قهقهة أخرى. اقتربت منه أكثر، ووضعت يدي على كتفه، وغامرت بإلقاء التحية: «صباح الخير أبو الزوز». كنت أتوقع أن يكون الرد قاسيًا: شتيمة أو ضحكة مجلجلة تعقبها حشرجة عميقة متألمة، لم يخطر في بالي أبدًا أن يكون الرد عواءً طويلًا متهدجًا ناشزًا.

أدركت أنني أحاول عبثًا، فابتعدت متوجهًا إلى دورة المياه، كان البرد يخز جسدي بلا رحمة، فكرت وأنا أغامر بغسل يدي ووجهي: «أبو الزوز هو الوحيد السويّ بيننا، إذ كيف يمكن إنسان أن يحتمل فظاعة هذا السجن المفتوح بلا نهاية خمسة عشر عامًا، وهو يوشك أن ينتهي منها هكذا، بذلك الإهمال والنسيان وهذا

القهر كله. قرقع المفتاح المعدني في أقفال المهاجع الأولى، فحملت كيس القمامة، واتجهت إلى الباب. كان أبو الزوز قد سبقني؛ مرتديًا معطفه الخاص الذي صنعه من بطانيات عسكرية مهترئة. لم يكد الشرطي ينتهي من تدوير المفتاح في القفل، حتى فتح أبو الزوز الباب، واندفع إلى الممر.

في الممر، صباح آخر يعلن أننا ما نزال أحياء داخل قبر النفي والصفيح الذي يبتلعنا منذ سنوات طويلة. تعالت تحيات الصباح من الخارجين لإيصال أكياس القمامة إلى الخارج، وكان برهان يعدّ أرغفة الخبز تمهيدًا لتوزيعها، وعندما رآني أشار بوجهه القلق إلى أبي الزوز، فهززت رأسي حائرًا وقلت: «نوبة جديدة، ولكنها أقسى من سابقاتها، على ما يبدو». أوصلت كيس القمامة، ثم عدت إلى مهجعي، وفتحت الباب، فانبعثت رائحة كريهة. ترددت في ترك الباب مفتوحًا، كي يتبدل شيء من هذا الهواء الفاسد الراكد، ولكن البرد وهؤلاء الذين يواصلون نومهم؛ محاولين اصطياد بعض الدفء، جعلاني أحسم الأمر.

أغلقت الباب، فبدا المهجع مثقلًا بالوحشة والصقيع. غسلت يدي ووضعت ركوة القهوة على الغاز، ثم بحثت عن بقايا معجنات داخل علبتي، فكانت قطعة صغيرة من النمورة، جافة وقاسية، تقبع وحيدة في أسفلها. حاولت أن أدفعها إلى معدتي فلم أستطع، فقد تحوّلت إلى قطعة من عجين مقرمد بلا طعم. بصقتُها وأسرعت إلى الركوة التي بدأت تصدر صوتًا عاليًا، فأخفضت شعلة الموقد، وتناولت علبة القهوة التي كانت فارغة، فأعدتها، وأنا أشتم كل شيء. أطفأت الغاز، وخرجت إلى الممر.

لا أحد يغامر هذا الصباح لا بالمشي ولا بالرياضة. ممر طويل يمتد برخامه المتسخ، باردًا وعاريًا وخاليًا، إلا من أبي الزوز الذي يمشي مسرعًا؛ عينان مغمضتان ووجه محتقن وصرخات متقطعة وموجعة تنداح فوق عري أرواحنا وهشاشة وجودنا وعجزنا. فتحت باب المهجع التاسع، وكان برهان، بعد أن أنهى توزيع الخبز، يجلس ساهمًا ملتحفًا بغطائه، وأصابعه تعبث بشواربه، كما يفعل دائمًا عندما يدهمه الحزن. سحب رجليه ليفسح لي مكانًا إلى جانبه، ثم سألني إن كنت قد شربت قهوتي، فأشرت برأسي نافيًا. سحب جسده الناحل من داخل غطائه، وقام ليجهز القهوة (ها هو واحد آخر يحمل فوق كتفيه خمس عشرة سنة من السجن المستمر).

فكرت وأنا أنظر إليه، وكان قد جلس على كرسي صغير من أطباق البيض؛ واضعًا موقد الغاز بين ساقيه، ومادًا يديه وجذعه فوقه؛ محاولًا ألّا تهرب منه قبسة دفء واحدة. سألني بعد أن صب القهوة: «ماذا سنفعل من أجل أبي الزوز؟» أجبت: «لا شيء». بعد قليل يستيقظ إسماعيل، ثم يرمقني بنظرة غاضبة، قبل أن يصرخ: «هل سنظل نعطيه المهدئات، ولا شيء سوى المهدئات؟! ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ يجب أن يذهب إلى المستشفى». أجبت: «نعم، يجب أن يذهب إلى المستشفى، بل يجب أن يخرج من السجن، ولكن ماذا يمكننا أن نفعل من أجل ذلك؟. أنت تعلم ماذا يعني ذهابه إلى المستشفى. سيعود أسوأ بكثير مما هو عليه». صمت، وكان ينتفض ويتنهد بصوت عميق، ويحاول فعل أي شيء داخل دوامة العجز التي تبتلعنا جميعًا. تذكرت نوبة أبي الزوز الأولى، وكان ذلك منذ أكثر من عام. لقد جاءت تلك النوبة كلطمة قاسية فوق وجوهنا، وهزّنا مرضه، ورجَّنا، وفجّر في مستنقع وجودنا طوفانًا من القلق والسخط، وكأننا ما نزال قادرين على أن نفاجأ أو أن نرفض. كثيرون قبله مرضوا، ولكن لماذا كان وحده القادر على استنفار

كل هذا التوتر فينا؟! لعلنا كنا ندافع عن أنفسنا، وعن استنقاع أحلامنا وإحساسنا بأننا نقترب جميعًا من لجة الجنون.

هو آخر من كنا نتوقع مرضه. ثلاث عشرة سنة وهو يحاول زحزحة هذا الضيق الذي يعصرنا بين قبضتيه. يعلمنا اللغة الإنكليزية التي أتقنها في أثناء دراسته في لندن، ويرسم لنا، ويضحكنا، ويزرع قحط أيامنا بروحه المتوهجة، ثم انزوى فجأة. لقد اعتذر منا جميعًا، ومر على المهاجع جميعها ليخبرنا أنه متعب ويحتاج إلى العزلة قليلًا، ولم يمض أسبوعان حتى استيقظنا على صراخه المهتاج.

أبلغنا إدارة السجن؛ طالبين نقله إلى المستشفى فورًا، ولكنهم رفضوا، فأضربنا عن الطعام. لم نكن في تلك المرحلة نتفق على شيء، ولكنه أجبرنا على الاتفاق، وأرسل إلى المستشفى. في غيابه، كان أشد حضورًا. بدأنا نستعد لعودته. سنحتفل به. سنعيد إليه شيئًا مما فعله من أجلنا. عندما عاد أحسسنا بخيبة مرة، فقد كان شاحبًا يرتجف بقوة، وآثار إرهاق شديد بادية على وجهه. يومها، بكيت وأنا أتمعن في وجهه المنهك الأصفر وعينيه الغائرتين الضائعتين.

قلت لبرهان الغارق في صمته: «لا تقلبها غم، ألا يكفينا ما بنا؟». تنهد عميقًا وتناول سيجارة وأشعلها: «يجب أن نفعل شيئًا، لا تهمني النتيجة، يهمني فقط ألا ندمن هذا اليأس». بقيت صامتًا وأنا أدرك قسوة هذه اللحظات، قسوة الإحساس بالتلاشي والانسحاق. لعلع صوت أبي الزوز منفعلًا مستجيرًا، فخرجنا راكضين. كانوا يحاولون إعطاءه حقنة المهدئ. مشينا صامتين في الممر الضيق الممتد أمام المهاجع العشرة، صباح بارد وموحش ومتخم بالقهر، أإلى هذا الحد يغدو العالم رخيصًا وتافهًا ومنذورًا للعبث؟!

أبو حلب

في الطابق الثالث من سجن صيدنايا، التقيت أبا حلب، و»أبو حلب» تسمية استحقها صاحبها؛ لأنه من حلب أولًا، وكثيرًا ما كان ينادي في نومه: «حلب ع الشام، حلاااب، حلاااب»، ثانيًا. عندما التقيت به، كان قد أمضى ما يزيد على عشر سنوات في السجن، ولأنه كان يعمل معاونًا في باص «هوب هوب» بين دمشق وحلب، فهو دائم التحدث عن مهنته ودوره شديد الأهمية في عملية نقل الركاب من دمشق إلى حلب وبالعكس، وهو أيضًا يحلم دائمًا بأنه على صهوة باصه؛ صائحًا: «حلب ع الشام، حلاااب، حلاااب».

قصة اعتقال أبي حلب تدفعك إلى البكاء والضحك في الوقت نفسه: في أحد الأيام وبصفته معاونًا، اقترب منه شخصان، وبعد السلام طلبا منه نقل «نملية» (النملية خزانة صغيرة) من حلب إلى دمشق، ومن ثم إيصالها إلى أحد البيوت في دمشق، وكي لا يتردد أبو حلب، فقد عرضا عليه مبلغًا مغريًا لقاء ذلك. فكر أبو حلب في أنه يستطيع أن يوصل النملية إلى العنوان المقصود خلال الوقت الذي يفصل بين وصول الباص ورحلة العودة إلى حلب، فوافق. أحضر الرجلان «النملية»، وكانت صغيرة وفارغة، فرفعها أبو حلب إلى سطح الباص، وربطها جيدًا، وقبض أجرة نقلها، ووضع العنوان في جيبه.

كان الأمر بسيطًا وسهلًا؛ سيوقف سيارة نقل صغيرة، ويعطي السائق العنوان الذي كتبه له الرجلان، وسيوصل النملية، ويعود بالسيارة نفسها إلى حيث الباص. شرح له الرجلان كل شيء

بالتفصيل وسلماه مفتاح الشقة، لكي يضع النملية فيها، فالشقة غير مسكونة. عندما وصل الباص إلى الشام، وغادره الركاب كلهم، أسرع أبو حلب إلى النملية، وأنزلها عن سطح الباص، وأوقف سيارة شحن صغيرة «سوزوكي» ووضعها فيها، ثم أعطى سائقها العنوان.

عند وصوله إلى المكان المقصود، حمل النملية على كتفه، وصعد الدرج إلى الطابق الثالث، حيث الشقة المطلوبة، ووضع النملية جانبًا واستلّ المفتاح، وما إن فتح الباب حتى سحبته يد ما إلى الداخل، فوجد نفسه وسط رجال مسلحين يصوّبون أسلحتهم إليه. يكتشف أبو حلب، في ما بعد، أن الشقة تعود إلى مجموعة من تنظيم «بعث العراق» التي هربت عندما اكتشفها الأمن. كان رجال المخابرات قد كمنوا فيها؛ متوقعين أن أحدًا ما من التنظيم لا بدّ سيعود إلى الشقة. باختصار، لم تكن النملية إلا طعمًا استعمله الرجلان للتأكد من أن عناصر المخابرات قد تركوا الشقة أم ما يزالون فيها. هكذا، فقد وجد أبو حلب نفسه معتقلًا وعضوًا في خلية متهمة بمحاولة اغتيال عبد الحليم خدام الذي كان حينئذ وزيرًا للخارجية.

ما دام أفراد الخلية قد تمكّنوا الهرب، وما دام على أجهزة الاستخبارات أن تثبت كفايتها وقدراتها، فقد اقترح أحد جهابذة الضباط أن يلقّن أبو حلب رواية متقنة عن مجريات عملية الاغتيال، وأن يصور تلفزيونيًا، مع اعترافاته التي أتقنها. وافق أبو حلب، بعد أن أقنعوه بأنه ما إن ينتهي من تصوير المقابلة، حتى يوصله رئيس الفرع بنفسه إلى الكراجات، ليلتقي هناك بالباص الذي يعمل فيه.

لكنّ أبا حلب لم يتمكّن إتقان الدور جيدًا وذاكرته، لم تسعفه في حفظ ركام الأكاذيب، فعندما يسأله المذيع المكلف بإجراء المقابلة

عن نوع السلاح الذي كان بحوزة مجموعة الاغتيال، كان يجيب بكل بساطة: «يا سيدي! كنا نريد استخدام النملية»، فيوقف التسجيل، وتبدأ حفلة الركل والشتم والضرب، ثم يعود الملقن ليشرح لأبي حلب ما يتوجب عليه قوله، وتعود محاولة التسجيل مرة أخرى، وتعود «النملية» أداة الاغتيال المفضلة عند أبي حلب. ألغيت الفكرة بعد محاولات عدة لم تستطع دفع أبي حلب إلى شطب «النملية» من ذاكرته، فأعيد إلى زنزانته، ثم يظهر بعد مدة شخص آخر في التلفزيون، بصفته عضوًا في خلية اغتيال خدام، ولكن بلا نملية هذه المرة.

لم يطلق سراح أبي حلب، فلا أحد يدخل إلى السجن ويخرج منه، ولم يكن هناك أي حاجة إلى إبقائه في فرع المخابرات، ولذلك تقرر إرساله إلى المستودع، أي إلى السجن. هكذا، وصل إلى سجن صيدنايا، وبعد ثلاثة عشر عامًا مضت على يوم «النملية»، تقرر الإفراج عنه. غادر أبو حلب سجن صيدنايا بشعره الأشيب وجسده الذي هدَّه السجن وبثيابه المهترئة، ولم يكن يعلم إلى أين سيتوجه. الشيء الوحيد الذي كان يتكئف كل العالم فيه كان يرقد في جيب بنطاله، وهي صورة مشققة بهتت ألوانها لباص كتب على واجهته «حلب- دمشق- حلب».

الوليـمـة

كانت الوليمة كبيرة، على نحو لم يخطط له، فقد حرص أحمد على أن يجهز كل شيء بصمت، ومن دون أن يلفت الانتباه إليه. لكن الحدث العظيم يحتاج إلى البندورة، ولذلك اضطر إلى طلبها من لجنة المهجع. من ثم، اضطر إلى دعوة اللجنة إلى المشاركة في الوليمة (اللجنة المكونة من شخص واحد، ولا أدري لماذا يصر الجميع على مناداته باللجنة). لم تعتذر اللجنة عن تلبية الدعوة؛ لأن الدعوة ببساطة لا يمكن مقاومتها.

أما حسين، فقد كان دوره (سخرة) في ذلك اليوم، أي إنه سيكون المسؤول عن الخبز والبصل اليابس والجلي. لذلك، اضطر أحمد إلى أن ينتحي به جانبًا ويخبره بصوت خافت عن الوليمة، فـ «فنجر» حسين عينيه مدهوشًا، ثم همس: «بشرفك ؟!. يا رجل، منذ خمس سنوات لم أذقها، وقبل الدعوة بسعادة غامرة. برهان هو جار أحمد الذي يعرف بسر الوليمة منذ أيام، وقد سهر مع أحمد طوال الليلة التي سبقت الوليمة: يخططان، محاولين حصر الدعوة بأقل عدد ممكن، وهو أيضًا مدعو بقوة، فالوليمة وليمته.

لأن الليمون الحامض غير متوافر في المهجع، في حين لدى المهجع السابع -بحسب استخبارات برهان- ثلاث ليمونات، فقد كان من الضروري التآمر مع لجنة المهجع السابع، ومن ثم دعوتها، شريطة أن تصطحب معها الليمون الضروري للوليمة. فاضل الذي لديه زاوية خاصة يمكن إغلاقها، بحيث لا يرى الآخرون ما في داخلها، هو أيضًا مدعو؛ لأنه سيقدم المكان الذي ستتم فيه الوليمة.

ياسر الذي يجلس على فراشه، وهو يقرأ في كتاب سميك ذي غلاف أخضر مهيب، ارتاب من الحركة غير الطبيعية التي تجري في المهجع، فبدأ يراقب الأمر بصمت، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن معرفة الحقيقة كاملة، إلا أنه استطاع معرفة ما يكفي لكي يضع شريط الدلالة في الصفحة التي وصل إليها، ثم يخرج الى الممر؛ باحثًا عن العكاري، فيعودان معًا ليقتحما خيمة فاضل، ويحتلا مكانهما قبل الجميع.

حركات صامتة ومواد تدخل مخبأة إلى زاوية فاضل، وأشخاص يتكومون على أنفسهم، والطاولة الصغيرة تكتظ بصحن البندورة المقطعة، وصحن البصل اليابس الذي جهزه حسين بأناقة فائقة، وليمونة صفراء ريانة تليق بالوليمة، ودستة كبيرة من الخبز. الجميع ينتظرون وأحمد يتأكد أن كل شيء على ما يرام. يذهب إلى خزانته ويرفع غطاءها؛ محاذرًا أن يراه أحد، ويمد يده إلى داخلها ثم يخفي ما أخرجه بسرعة في داخل جيبه ويعود.

يحشر نفسه بين الحشد، ويمد يده إلى جيبه ويخرج علبة السردين ذات الغلاف الأصفر والملون بمساحات حمراء وخضراء، وفي الزاوية العلوية من العلبة ظهر قرنا الفليفلة بلونهما الأحمر. العلبة تنتقل من يد متلهفة إلى يد متلهفة. النظرات تلتمع، والتعليقات تتوالى بصوت منخفض، أخيرًا استقرت العلبة بين يدي أحمد الذي حملها برفق، ونظر إليها ومسحها، ثم بهدوء شديد بدأ غلافها يدور وينفتح.

لم تدم الوليمة أكثر من دقيقة، وخرج بعدها الجميع وهم يشكرون أحمد؛ متمنين له أجمل الأمنيات، وعلى الطاولة لم يبق سوى بعض

الخبز وعلبة السردين الفارغة. ربط أحمد علبة السردين الفارغة بخيط وخرج إلى الممر وهو يجرها خلفه في الممر المزدحم بالمسجونين الذين أثارت العلبة الفارغة في نفوسهم حسرة بالغة. راحت الشتائم واللكمات تنهال على أحمد الذي لم يدعُ الجناح كله إلى وليمته الفاخرة.

في حضرة النبيذ

في السجن، كنّا نصنع نبيذنا وكنّا نخترع ألف طريقة، لكي نحصل على اليانسون لنقطّر عرقنا، ولم يكن هناك أجمل من انبثاق اللون الأبيض من السائل الذي نصبّ الماء فيه! حتى وإن كان أبيضًا شاحبًا يجهد بكل ما أوتي من قوة ليفصح عن نفسه. عندما كنا نرى اللون الأبيض أو ما يشبهه، كنا نشعر بأن «الحياة جميلة وتستحق أن تعاش». في كل مهجع، هناك أحد ما يتولى أمور التخمير والتقطير وصناعة «المنكر».

في المهجع الذي عشت فيه خلال السنوات الأولى من سجن صيدنايا، كان ميخائيل هو باخوس مهجعنا، وكان لمخّول العظيم مدرسته الخاصة في التخمير، فهو يخمّر كل شيء: يضع البطاطا المسلوقة الزائدة مع الرز الزائد وبقايا الجبس مع بقايا الشاي المحلَّى، ثم يضيف لهفتنا ودهشتنا إلى مزيجه، ويخمّر. كان مخّول يستنفر عندما تنتهي المدة التي يرى أنها كافية لعملية التخمّر، ويفرض حالة الطوارئ في المهجع، فالقسم الداخلي الذي يحوي الحمام والمرحاض سيظل مشغولًا طوال اليوم، وكان علينا نحن أن ندبر رؤوسنا في المهاجع الأخرى. يبدأ مخّول بعد التفقد الصباحي مباشرة تقطير ما خمَّره، وفي المساء يوزع حصيلة عمله بدقة عالية.

من يرى تعابير وجه مخّول وهو يتفحص المقادير الموزعة، يظن أن ما يوزعه ذهبًا، وليس سائلًا لا يعلم أحد تركيبته وطعمه، ونحن كأطفال العيد نفرك أيدينا ونتلهف إلى رؤية المستوى الذي وصل إليه السائل المقدس في عبواتنا. عندما ينتهي مخّول من التوزيع، كنّا نتسلم

حصصنا ونخفيها في مكان آمن، ونرتب مواعيد السهرة التي سنكرع فيها كل ما لدينا وطقوسها. نحدّد يوم السهرة في الليلة التي يناوب فيها المساعد الأقلّ سوءًا، ونجمع ما لدينا من فاكهة -إن وجدت- وأما الموالح فهي ترف قلّ ما عرفناه. نبدأ ليلتنا بالغناء والضحك عاليًا ومحاولة الفرح، ولكننا بعد قليل نجد أنفسنا نقترب شيئًا فشيئًا من دوامة الحزن.

لا انفكاك عن الحزن، وهو نديمنا الذي لايغيب ولا يرحم. كانت سهراتنا تنتهي بالدمع غالبًا، وبصداع ثقيل نحلل أسبابه، عندما نصحو من مفاعيل المشروب المصنوع بإشراف مخّول، ويعيد من يفهم بشأن أنواع الكحول شرح درسه علينا للمرة العاشرة، وربما العشرين، ويظل يلح علينا أن ننتبه إلى أن هناك أنواعًا سامة من الكحول، ويذكّرنا في كل مرة كيف أنقذنا يوسف من التسمّم الكحولي الذي تعرض له، عندما لم ينتظرنا حتى المساء، فشرب باكرًا.

يومها شرب يوسف باكرًا، فأصيب بتسمم كحولي اضطررنا بسببه إلى دقّ الأبواب، والطلب إلى إدارة السجن إسعافه إلى المستشفى، ويومها أسرعنا بالتخلص من كل ما لدينا. ليس لخوفنا من التسمم فقط، بل لأن حملة التفتيش قادمة لا محالة. كنا نطلب من مخّول أن يخفّف من تجاربه علينا، وأن يقتصر في تخميره على ما هو واثق من جودته، وكان مخّول يهزُّ رأسه ساخرًا، ويقول: «والله لو بخمرلكن شحاحيط، رح تشربوها».

عطاء من أعطيات السيد الرئيس

في 27- 10- 1990، اقترب المساعد علي وثلاثة من أفراد الشرطة العسكرية، من باب الجناح، ثم طلب رئيس الجناح، وأمره تجميع من في الجناح كلهم في نهاية الممر. توقع رئيس الجناح أن الأمر ليس تفتيشًا، كما يفعلون في العادة، فالتفتيش غالبًا ما يقوم به عدد لا يقل عن عشرة من الشرطة، كما أن المساعد علي يحمل دفترًا كبيرًا بيده. بعد أن تجمعنا، فُتح باب الجناح، ثم دخل المساعد ومرافقوه، فوقفوا أمامنا، وفتح المساعد دفتره؛ طالبًا ممن يسمع اسمه أن يقول: «حاضر». راحت أسماؤنا تتّالى اسمًا بعد اسم؛ متبوعةً بصوت «حاضر»، وعندما انتهى المساعد، أغلق دفتره وسألنا: «في حدا ما طلع اسمو؟».

عندما تلقى صمتًا جوابًا عن سؤاله، أعطى الدفتر إلى أحد مرافقيه، ثم شدّ قامته وتنحنح؛ قائلًا: «كل اللي طلعت أسماؤهم، فيهن يبلغوا أهاليهم إنو صارت الزيارة مسموحة»، وصمت قليلًا، ثم تابع: «وهي عطاء من عطاءات السيد الرئيس»، وصمت. يبدو أنه كان يتوقع أن نهتف للسيد الرئيس، ولكننا التزمنا الصمت. استعرضنا بنظرة غاضبة ثم زفر؛ قائلًا: «والله ضيعانها فيكن ياخروات»، وهزّ رأسه قبل أن يستدير مغادرًا. في ذلك اليوم، كان معظمنا قد تجاوز ثلاث سنوات في السجن، من دون أي اتصال بالعالم الخارجي، فكان السماح بزيارة الأهل يكاد يعادل الإفراج. ما إن أغلق الباب الخارجي واختفى المساعد ومرافقوه، حتى انقلب الجناح رأسًا على عقب، أصوات الضحكات، وفرح غامر، ووجوه بدأت تستعيد شيئًا من لون الحياة.

في تلك الآونة، من يراقب هؤلاء المسجونين، من دون أن يعرف القصة وأبعادها، يقتنع فورًا بأن هذا الجناح مخصص للأمراض العقلية، فالكل يريد أن يحلق شعره، وفي الجناح كله لا يوجد إلا مقص واحد. ولأن أغلبنا لا يملك ثيابًا، فقد تمزق معظمها واهترأ، خلال رحلتنا الطويلة قبل الوصول إلى صيدنايا، فقد كان علينا أن نتدبر أمر الثياب، ونجرب كلنا ما تبقى من الثياب السليمة والأحذية، ونستعرض أشكالنا، ونسأل بعضنا بعضًا إن كان بنطال فلان هو الأفضل، وهل يناسب قميص فلان بنطال فلان أم بنطال فلان الآخر، ونتحمل ضيق الحذاء أو اتساعه، فليس مهمًا هذا الأمر، وتصبح سهراتنا كلها عن زياراتنا القادمة التي لا نعرف متى ستكون، وماذا نطلب من الأهل، ونعلن عن رغباتنا في الأكل.

معين سيقلي عشر بيضات بالسمن العربي، ويأكلها وحده دفعة واحدة: «رجاءً خيو، لا حدا يقرب وشو عليّ وأنا عم آكل. مارح اسمح لحدا ياكل لقمة وحدة معي»، وعندما يعلق كمال: «بس لقمتين ولووووه»، ينفعل معين: «ولا لقمة». حسين سيوصي على كنافة خشنة من اللاذقية، ويأكل حتى يشبع: «إذا زاد شي بضيفكن». كمال سيدخن باكيت حمراء طويلة كامل من دون أن يتوقف، مع قهوة سيوصي عليها من عند «بن حسيب» .

بسام سيصنع أكبر إبريق شاي، ويسترسل في خطته: سيغلي السكر في الماء جيدًا، ثم يطفئ الغاز، ويضع كمية كبيرة من الشاي، ويغطي الإبريق بمنشفة، ويتركه ربع ساعة. في انتظاره سيفتح باكيت الحمراء الطويلة، ولن يشعل أي سيجارة منها، وبعد أن يختمر الشاي جيدًا، سيصب كأسًا من الشاي، ويشعل سيجارته، ويظل يشرب الشاي ويدخن، حتى ينتهي من علبة الدخان وإبريق الشاي... رغبات بلا

نهاية: خيار وبندورة وسمك وفلافل وحمص ومدلوقة، ثياب وصور وأحلام، ونغفو، نغفو في انتظار أن تشم أرواحنا، بعد هذا الغياب كله، قليلًا من رائحة الحياة.

سرياليات 2

الزمان: استفتاء على رئاسة الجمهورية في سورية عام 1991.

المكان: السجن العسكري الأول (صيدنايا).

الحدث: معتقلون لسنوات طويلة، ورؤوسهم محنية، ولايسمح لهم برفعها، وهم يصطفون في طابور طويل في ممر الجناح. في نهاية الممر وضعت طاولة معدنية جلس خلفها مساعد أول من الشرطة العسكرية، وإلى جانبه شرطيان. يمر المعتقلون واحدًا بعد الآخر أمام الطاولة، وهناك يضغط المعتقل إصبع إبهامه على علبة الحبر (اسطمبة)، ثم ينقلها ليبصم بـ«نعم»؛ معلنًا تأييده لبقاء حافظ الأسد في منصب رئيس الجمهورية لولاية رابعة.

كان الطابور يتقدم، والمسجونون الذين بصموا بإبهامهم فوق دائرة الموافقة عادوا الى داخل المهاجع. لكن، عندما جاءت التعليمات أن البصمة يجب أن تكون بالدم، وليس بالحبر، عاد الجميع الى الطابور، وكان على كل معتقل أن يتناول دبوسًا من العلبة التي وضعت على الطاولة، ليثقب إصبعه حتى خروج الدم منها، ثم يضعها فوق الدائرة التي تعني أنه «موافق».

فـرمـان

بعد أشهر من فتح باب الزيارات، أصدر مدير السجن فرمانا يمنع فيه التحدث بغير العربية خلال الزيارة، باختصار، كان الأمر بالحقيقة هو منع التحدث بالكردية خلال زيارات أهالي المعتقلين الأكراد.

ذلك اليوم عاد صديقي الكردي من زيارته حزينًا ومقهورًا، جلس على فراشه، وأشعل سيجارته وصمت، وعندما سألناه عن سبب حزنه وهل هناك أخبار سيئة، تنهد قائلًا: «أخبار شو؟ لم نتكلم ولا كلمة، أختي وأمي لا تتكلمان العربية أبدًا، وهكذا مضت الزيارة كلها بصمت، كنا نحدّق إلى وجوه بعضنا بعضًا ونبكي فقط».

انتظار

عندما صدر الأمر بعد سنوات بالسماح لأهلنا بزيارتنا في السجن، كانت مشكلتنا الأولى أننا لا نملك ثيابًا، فمعظمها كان قد اهترأ أو تمزق أو تحول إلى استعمالات أخرى، وكان ارتداء الثياب المهترئة، أو تلك التي أصبحت كرنفالًا بألوان رقعها المختلفة، قد أصبح هو العادي والمألوف. فجّر قرار السماح بالزيارت المشكلة التي كنا قد نسيناها، وبعد مداولات واجتماعات تقرر تأميم كل الثياب السليمة والأحذية التي ما تزال قابلة للاستعمال، ووضعها في مكان واحد، ومن يتم تبليغه كي يستعد للتوجه إلى مكان الزيارات، يسرع إلى حيث توجد الثياب والأحذية، وهناك يختار مما تبقى منها ما يلائمه.

انقلبت حياتنا جميعًا بعد ذلك القرار، ولكن حياة نواف انقلبت على نحو آخر منذ أن سمع بالقرار، فكان كل صباح ينهض باكرًا، ليغسل وجهه ثم يسرّح شعره، ويتحسس ذقنه بيده، وعندما يطمئن إلى أنها لم تطل إلى الحد الذي يتوجب عليه حلاقتها، يتجه إلى حيث توجد الثياب والأحذية. في مثل هذا الوقت المبكر تكون كلها موجودة، فقائمة المزارين لن تعرف إلا بعد ساعة وربما أكثر، وكان نواف يتمعن في الثياب، ثم يختار ما يريد أن يرتديه، ويحمله إلى مهجعه، وهناك يبدل ثيابه ويخرج إلى الممر ليمشي؛ منتظرًا سماع اسمه بين قائمة المزارين.

في الممر يتكرر، في كل يوم عشرات المرات، الحوار القصير: "صباح الخير أبو النوف، شو مجهز حالك بكير، زيارتك اليوم؟".

"إي والله. منتظر زيارة اليوم". في الثالثة ظهرًا ينتهي الوقت المخصص للزيارات، فيخلع نواف ثياب الزيارات ثم يحملها ويعيدها إلى المكان المخصص لها ويعود إلى فراشه، ليختفي كله تحت غطائه وينام. ما يزيد عن ثلاثة أشهر ونواف لا يغير عادته: ينتظر زيارة لم تأت، ولكنه فجأة أوقف عادته، وعاد إلى رتابة أيامه قبل قرار الزيارات، ولم يعد يستيقظ باكرًا، وعندما يستيقظ لم يكن يسرع ليغسل وجهه ويسرح شعره، وكان يسحب جسده من تحت الغطاء، ثم يسند ظهره إلى الحائط، ويجلس صامتًا مدة طويلة، ثم ينهض بعدها ليكمل يومه العادي، فيغسل وجهه ويتناول فطوره، ويخرج إلى الممر ليمشي ساهمًا، ولم يعد يهتم بسماع قائمة الأسماء التي يتلوها الشرطي على باب الجناح.

أخيرًا، بعد خمسة أشهر من بدء الزيارات قُرئ اسم نواف ضمن قائمة المزارين، وما إن لفظه الشرطي حتى ركض الجميع إلى مهجعه، ولم يكن نواف قد استيقظ عندما احتشد المهجع بمن يريدون إخباره بأن اسمه ضمن قائمة اليوم، وتعالت صرخاتهم فوق رأسه، والبعض ممن يملكون ثيابًا حملوا ثيابهم، ليختار نواف منها ما سيلبسه في زيارته. رفع نواف رأسه ثم نهض ببطء من فراشه، وغسل وجهه، وسرح شعره، ثم اتجه بالثياب التي يرتديها إلى الباب الرئيس للجناح، وعندما تعالت أصوات المحتجين رافضةً السماح له بالزيارة بهذه الثياب المهترئة، وقف ثم ابتسم ابتسامته التي تقول من الحزن ما يعجز عنه الدمع والصراخ، ثم قال:

«يا شباب، من كنت أحاول أن أبدو في نظرها مرتبًا ومعافى وبأحسن حال، ماتت. لو كانت أمي ما تزال على قيد الحياة، لما انتظرت خمسة أشهر كي تزورني». استمرت الاحتجاجات

ومحاولات الإقناع، ولكن نواف أدار ظهره ومضى في اتجاه الباب. عندما عاد نواف من زيارته لم يقل شيئًا، وكان وجهه جامدًا. نظر إلى الحشد الذي تجمع حوله وقال كلمته الوحيدة: «ماتت»، ثم انزلق بهدوء تحت غطائه.

ناطف

في أحد الأيام، جاءت زيارة أحد المعتقلين من اللاذقية، وقد كان من بين المواد التي أحضرها له أهله كيس بلاستيكي شفاف يحتوي على كرابيج، وفي كيس بلاستيكي شفاف آخر كان الناطف المرافق حتمًا للكرابيج. لا أعرف إن كانت الحلويات المسماة «كرابيج» معروفة في كل مدن سورية ومناطقها، ولكنني متيقن من أنها معروفة في اللاذقية ودمشق وحلب. الكرابيج هي أقراص مصنوعة من السميد والطحين، وهي تُحشى بالجوز أو الفستق الحلبي. غالبًا ما تكون أقراص الكرابيج غير محلاة، إلا بحلو موادها الطبيعية، ولذلك تُباع معها مادة أخرى تسمى «ناطف»، وهي مادة بيضاء ذات لزوجة كثيفة حلوة المذاق تُغمس فيها أقراص الكرابيج ثم تؤكل.

في السجن، عاش معتقلو حزب العمل الشيوعي تجربة خاصة، وتتلخص هذه التجربة بالتشارك في كل شيء، فكل ما يأتي عبر الزيارات هو ملك عام، بدءًا بالنقود ومرورًا بالطعام وانتهاء بالثياب الداخلية. كنا ننتخب -لأزمان محددة قد تطول وقد تقصر- لجنة تتولى مهمات إدارة موارد الجناح، فهي تستلم المواد القادمة عبر الزيارات، وتضع الميزانية العامة، وتقرر المواد التي نحتاج إلى شرائها عبر الفاتورة، وتقرر المساعدات التي يمكن تقديمها إلى الأجنحة غير المزارة، وتحدد حتى عدد السجائر التي يحق لكل منا أن يدخنها في اليوم... إلخ.

في تلك المرحلة، كانت إدارة السجن قد أصدرت قرارًا ألزمت به الأهالي وضع المواد التي يصعب سبر ما فيها، باليد أو بأداة ما، في أكياس نايلون شفافة، كي يسهل على المفتشين مراقبتها. على ذاك، فقد كان

الشامبو يصلنا في أكياس النايلون، وكذلك معجون الأسنان، وزيت الزيتون، والسمن.. إلخ. كما هي العادة، استلمت اللجنة مواد الزيارة عند باب الجناح، وفتحت جداولها، وباشرت توزيع المواد التي جاءت في الزيارة. مصادفةً، لم يعرف أحد أعضاء اللجنة الثلاثة ما المادة البيضاء اللزجة الموجودة في كيس وحدها، ولم يسأل أحدًا. بعد أن جسّوا الكيس، وتحسسوه، وقلبوه، قرروا الاتفاق على أن المادة الموجودة في الكيس هي نوع ما من أنواع الشامبو، وعلى هذا فقد أعطوا الكرابيج إلى مهجع على أنها معمول، وأعطوا الناطف إلى مهجع آخر على أنه شامبو.

كان الوقت قبل الظهر، عندما دخل أحد أفراد اللجنة إلى المهجع التاسع حاملًا في يده كيس الناطف، وسلمه إليهم على أنه شامبو. في مثل هذا الوقت من اليوم، يكون ممارسو الرياضة قد أنهوا رياضتهم الصباحية، وجلسوا ينتظرون دورهم في الدخول إلى الحمام، لأخذ دوش سريع.

كانت كمية المياه المخصصة لحمام ما بعد الرياضة محددة بعشرة ليترات من الماء، وأما الحمام الأسبوعي فكانت الحصة المقررة له عشرين ليترًا. احتفل الرياضيون في المهجع التاسع بالشامبو، وخصوصًا أولئك الذين ينتظرون دورهم في الحمام الصباحي، فاحتضنه من سيدخل الحمام بعد خروج من فيه بفرح، وما إن خرج المستحم حتى بادره شامتًا: «قلتلك لا تستعجل بالدوش. تفضل هي إجا الشامبو!». لم يطل الأمر كثيرًا، دقائق فقط، وإذ بصراخه يعلو من الداخل: «يلعن أبو هالشامبو على أبو اللي جابو، خلصت المي وما كان يرغي».

الباشا

هو الباشا، وكلنا نسميه «الباشا»، وقد تكون قلة من بيننا من يعرفون اسمه الحقيقي، ولم يكن الأمر بسبب ضرورات أمنية، فنحن الآن في السجن، ولم يبق لدينا ما نخفيه، ولكنها العادة. حتى عناصر السجن، ومساعد الانضباط حفظوا اسم الباشا. في يوم ما، اقترب سجان من باب الجناح، وفي يده ورقة كتب عليها أسماء من حضر أهلهم لزيارتهم، وكالعادة فإن الأقرب إلى الباب يقترب ليسمع الأسماء، ويخبر الشرطي إن كان الاسم موجودًا في جناحنا أو غير موجود، ثم ليسأل المزار إن كان في جناحنا لكي يستعد للزيارة.

لقد كان الباشا يومها هو الأقرب إلى الباب، وكان قد استيقظ باكرًا واستعد؛ لأن اليوم هو موعد زيارته، وعندما وصل الشرطي وقرأ اسم المزار: «محمد ديب قات، زيارة»، هزّ الباشا رأسه؛ قائلًا: «لا، ليس موجودًا في جناحنا». غادر الشرطي ليبحث عنه في أجنحة أخرى، واستدار الباشا ليواصل مشيته الباشوية في الممر الطويل، ثم بعد خطوات، وكمن يصحو فجأة، تذكّر أنه هو بذاته محمد ديب قات.

خيبة 1

قيس الذي يحمل ثيابه ويستعد للاستحمام، وقف في منتصف المهجع معلنًا: إن حصيلة عملية التقطير التي استغرقت ثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة، هي خمسة ليترات من «العرق المثلث»، ثم أضاف قبل أن يختفي في القسم الداخلي حيث الحمام: «جهزوا الأوعية الفارغة، سأوزع العرق بعد خروجي». أزحت الغطاء عني كي أنهض، لكن أبا إياد، وهو جاري وشريكي، نهض مسرعًا ووقف مائلًا، وهو يسند ظهره بيده، فقد أقعده وجع ظهره عن الحركة، ولكن ما سيوزع هو العرق، ومن ثم فإن وجع الظهر لا ينبغي الالتفات إليه في هذا اليوم، ثم قبل أن يتناول الزجاجات الفارغة من خزانته، سألني: «هل يكفي ليتر واحد؟».

لم ينتظر جوابي، فقد أنزل زجاجتين من سعة ليتر، ووضعهما جانبًا وعاد إلى التمدد على فراشه، وأشعل سيجارة اللف، ونظر إلي مبتسمًا، لقد كان وجهه مسكونًا بالغبطة والرضى، فقلت له مازحًا: «ما دام أن ما سيوزعه قيس هو خمسة ليترات فقط، وما دمنا خمسة عشر شخصًا في المهجع، إذًا ألا تكفي عبوة واحدة؟»، فهزّ أبو إياد رأسه متأففًا، وأنا لا أدري من أين يأتي أبو إياد بهذا الأمل الغامض القادر على فعل ما هو غير ممكن، نظر إلي ثم سألني: «هل سنشرب اليوم؟».

أعرف أنه لن يتحمل وجود الكحول فوق رأسه من دون أن يشرب، لذا هززت رأسي موافقًا، فنهض من جديد ليبحث إن كان ما يزال لدينا بقايا من موالح مخبأة، فقلت له حانقًا: «هل نسيت ألم

ظهرك؟ انس الموالح الآن!». هيثم الذي تطوّع لشطف المهجع، نيابةً عن السخرة، نهض وتحرك على الممر، وأخذ يبعد الأشياء الموجودة، بينما عاد الجميع إلى الانشغال بأعمالهم.

كان أبو إياد يدخن مغمضًا عينيه، وتعليقات صاخبة تتقافز من لاعبي الورق، بينما كان عصام مستغرقًا في كتابة شيء ما، وفي الزاوية البعيدة استلقى برهان؛ واضعًا الوسادة فوق رأسه ومحاولًا أن يغفو كعادته بعد العشاء. تكورتُ من جديد تحت غطائي، ففتح أبو إياد عينيه، ثم استدار إلى اتجاهي وسألني: «هل ما يزال عرق الريان جيدًا كما كان؟». ضحكت، فأنا لا أستطيع أن أعد المرات التي سألني فيها هذا السؤال، وقلت له مازحًا: «يا سيدي. لم يعد يقطَّر ثلاث مرات، كما كان في السابق، أصبحوا الآن يقطرونه خمس مرات». انطلقت ضحكته المجلجلة التي تكون عندما يكون سعيدًا، وعندما هدأ راح يحدثني عن ذكرياته مع عرق الريان.

شممتُ رائحة الكحول تنبعث قوية، وكان أبو إياد يواصل شريط ذكرياته. رفعت رأسي، فرأيت هيثم منهمكًا بشطف المهجع، ولكن رائحة الكحول قوية جدًا!. نظرت إلى الآخرين، فكان بعضهم قد صمت منتبهًا إلى الرائحة التي كانت تزداد. فجأة، صمت الجميع، وكانت العيون وحدها تتساءل عن مصدر الرائحة. نهض أبو إياد من فراشه، ودارت عيناه في أرجاء المهجع كله؛ باحثة عمن يشرب الكحول، ولكن نظرات الجميع كانت تتساءل، فتوقف هيثم مستغربًا هذا الصمت المفاجئ. ثوان من الصمت، والجميع يتساءل بعينيه، فجأةً، انبطح أبو إياد على فراشه؛ واضعًا رأسه فوق الأرض مباشرة، وشمّ بعمق. ارتبك هيثم، ونظر الجميع إليه ثم إلى أبي إياد الذي رفع رأسه ونظر إلى هيثم بعينين مفجوعتين، وتنهّد عميقًا، قبل أن يقول صارخًا: «يا... ألا تعرف الماء من العرق؟!».

ببساطة، كان هيثم قد تناول «بيدون» العرق الذي وضعه قيس لتوزيعه، وسكبه على أرض المهجع؛ ظانًا أنه ماء. بوغت هيثم بما فعل فتلعثم وحاول أن يبرر، ولكن النظرات الحانقة أسكتته، فاستند إلى الحائط صامتًا. ضحك جهاد ثم صرخ لكي يسمعه قيس: «لا تستعجل، وزعنا العرق». أزاح برهان الوسادة عن وجهه، ثم جلس ونظر إلى هيثم؛ قائلًا: «أكمل الشطف بسرعة، هل تريد أن يأتي السجانون بسبب الرائحة؟!». راحت التعليقات تتطاير؛ حانقة ثم مستاءة ثم مازحة. أما أبو إياد فقد نهض ببطء، ثم أعاد الزجاجات الفارغة إلى مكانها، وهبط ببطء ثانية، ليندس في فراشه بالطريقة نفسها التي يفعلها، عندما يكون ألم ظهره لا يُطاق.

خيبة 2

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلًا بربع ساعة، عندما خرج فاضل من خيمته بلباسه الشتوي الكامل، وخيبة عميقة تسكن في عينيه. أزاح الستارة التي أختفي خلفها، ثم همس لي كي لا يوقظ النائمين: «لم تأت هذه الليلة». نظرت إليه مستغربًا، وسألته: «من تلك التي لم تأت؟!». نظر إليّ مصعوقًا من سؤالي الأبله، ثم استدار واتجه إلى الحمامات، ووضع الكرسي الذي صنعناه من تكديس عشرات أطباق البيض الفارغة إلى جانب نافذة المنور، وصعد إليه، ونادى فرج الذي يعيش في الطابق الذي فوقنا مباشرة، وعندما سمع صوت فرج من المنور، أعاد بث شكواه: «فرج! لم تأت هذه الليلة»، وما إن سأله فرج: «من التي لم تأت؟»، حتى نزل عن كرسيه، واتجه إلى خيمته صامتًا، ثم مبربرًا: «هلأ بطلتوا يا خروات تعرفون من هي!». خرجت من فراشي وذهبت إلى خيمته، وكان قد اندس في فراشه بعد أن خلع لباسه الشتوي وأشعل سيجارة، وقلت له: «فاضل! من التي لم تأت؟». نظر إليّ ثم قال: «يا دب! هيام. هيام لم تأت هذه الليلة».

شرح المفردات

فاضل الفاضل: رقاوي بسمرة غامقة، وقد سجن مرتين. في الأولى بقي حوالى سنتين، أما في الثانية فقد بقي 17 سنة متواصلة.

اللباس الشتوي لفاضل: «كيلوت» على النصف الأسفل من الجسم، وقميص خارجي على القسم الأعلى، وأما اللباس الصيفي فهو «من غير هدوم».

هيام: هيام حموي المذيعة المعروفة، وكان فاضل ينتظر صوتها الأنثوي الدافئ في يوم محدد من كل أسبوع، ويستعد كما لو أنها ستصحبه إلى سهرة رائعة، من خلال برنامجها «ليل وأوضة منسية» الذي كان يُبث من إذاعة الشرق، مساء يوم الإثنين من كل أسبوع -على ما أذكر- من الساعة العاشرة حتى الحادية عشرة ليلًا.

استعداداته لسهرة الإثنين تلك كانت تبدأ قبل ساعة أو ساعتين من موعد بث البرنامج، فيحضّر كأس العرق، إن كان متوافرًا عنده أو عند أحد رفاقه، ويجهّز شمعة مهما كانت وكيفما كانت، ويثبت الراديو جيدًا بعد أن يضبط استقباله على إذاعة الشرق، وما إن يبدأ موجز الأخبار القصير الذي يسبق البرنامج، حتى يشعل سيجارته ويغمض عينيه، غاطسًا في ماء رحلته المفترضة مع هيام. في ما بعد يعرف فاضل أن هيام كانت تخونه؛ سائحةً في المغرب، ومبدّدة أيام إجازتها السنوية.

كنت أمينًا للمكتبة

لقد أصبح لدينا في السجن مكتبة، وكنا نشتري كتبها من خلال إدارة السجن أو بتوصية الأهل على كتب يحضرونها في زياراتهم. ولأن زمن السجن زمن بلاستيكي ولأننا مسجونون في زمن مشلول الأطراف، وسنوات تمضي بكل سلاسة، فقد تكونت لدينا مكتبة ضخمة، وأما الذي يأتي عن طريق إدارة السجن، فقد كان محصورًا بمعرض الكتاب. لقد كنا ننتظر كل سنة معرض الكتاب الذي يُقام في «مكتبة الأسد»، ونطلب دليل المعرض، ثم تتشكل لجنة مهمتها اختيار الكتب التي نريدها، من تلك التي تلائم الميزانية المخصصة للكتب.

يدير المكتبة شخص يتم اختياره بالتصويت، ومهمة أمين المكتبة هي: تنظيم الدور والإعارة واستعادة الكتب، وما إلى ذلك. لقد حدث أن كنت أمينًا لهذه المكتبة السجنية، وقد يتوقع بعضهم أن يكون هذا العمل سهلًا وبسيطًا، ولكن الواقع هو غير هذا تمامًا، فتخيلوا مثلًا أن يأتي كتاب نُشر حديثًا ويريد الجميع قراءته. هل تتخيلون أن 230 شخصًا يريدون قراءة كتاب يضم حوالى 400 صفحة، فهذا يعني أن هناك مدة انتظار قد تصل إلى سنوات. لحلّ هذه المعضلة اتخذنا حلولًا ناجعة جدًا، فقد وضعنا دورًا بالساعات للكتاب الواحد، أي إن كل شخص يحصل على ساعتين مثلًا في اليوم فقط، ثم كان الحل الآخر وهو تشكيل حلقات لقراءة الكتاب، كأن يجتمع أربعة أو خمسة أشخاص معًا في قراءة مشتركة.

هذه المقدمة كلها هي من أجل الوصول إلى القصة التي سأرويها:

أحد الكتب الواصلة حديثًا بلغ عدد المسجلين الذين يريدون قراءته 187 شخصًا، فوضعت جدولًا لتوزيعه بالساعات على المجموعات والأفراد، ولكنّ أحد الرفاق الأعزاء الذي كان يسجل على الكتب بطريقة خاصة، وهو الذي لا يقرأ إلا وحيدًا ليلًا، رآني في الـ «كوريدور»، فأمرني قائلًا: «الكتاب الفلاني غدًا بيكون عندي»، ولم يكن أمامي إلا أن أرد: «حاضر أستاذ».

على الرغم من أننا جميعًا نعرف أن رفيقنا العزيز هذا لا يحب القراءة، وليس لديه الصبر على تخصيص وقت يملائمها، فإننا كنا متفقين على احترام رغباته، فكنت أسرع -قبل إغلاق الأبواب- لجلب الكتاب إلى مهجع الرفيق إياه، وفي الصباح أذهب لاستلامه وتوزيعه على دور الساعات. كل ما كنت أفعله هو دفع المؤشر الذي يضعه رفيقنا للدلالة على الصفحة التي وصل إليها في قراءته إلى الأمام، عشر صفحات أو عشرين وربما أكثر بحسب الحاجة والمزاج والعفرتة، وهكذا كان رفيقنا ينتهي من قراءة الكتاب بسرعة!. لا أدري من نمَّ عليّ، فعرف رفيقنا القصة، وهكذا وجدت نفسي محاصرًا في زاوية مهجعه متَّهمًا بالتحايل، وهذا يعني عقوبة قد تبدأ بلبطة ولا تنتهي بفلقة.

تجمع حولنا الأشاوس الذين لهم في كل عرس قرص، فالقصة ممتعة وستمنحهم مادة يضحكون عليها طويلًا في قادم الأيام، وتوزعوا الأدوار: هذا يحرض على ضرورة جعلي عبرة لمن لا يعتبر، وهذا يقسم أنه رآني أزيح المؤشر، وذاك يطلب الفلقة بالعصا بدلًا من الشحاطة، وآخر يطالب بالشبح. تماسكت ونفيت التهمة، وطالبت

بلجنة تحقيق. لكن الأشاوس الذين يعرفون أنني ما إن أخرج من الزاوية التي يحاصرني فيها حتى ينتهي العرض، فتفوتهم فرصة الاستمتاع بالمشهد الكراكوزي الذي يخططون له. على هذا، تسارعوا إلى تسخيف فكرة لجنة التحقيق، وطالبوا بإحقاق الحق، وتطبيق العدالة، وتنفيذ العقوبة فورًا.

حينئذ، لم يكن لديّ لا حمار ولا جبّة لينقذاني، أنقذني أحد المتجمهرين، عندما اقترح أن يبادر هو ومجموعة من «عتاعيت» الأشاوس إلى تكبيلي، وبعدها ليقرر الرفيق الأمير العقوبة التي تلائم تاجه. نظر إليه الرفيق الجليل مليًّا، ثم قال: «جكارة فيك، بدّي أعفو عنو». وهكذا انفضّ العرض بخيبة فارهة للكتّيفة. لكن الرفيق الملك، جكارةً بي، فقد أعاد المؤشر إلى الصفحة الأولى، وكأننا «لا رحنا ولا جينا».

سرياليات 3

أن تتهم بأنك ضد سورية، فهذا لا يثير في نفس من يتهمك الاستنكار، وأن تتهم بأنك خرقت القانون فهذه تهمة تثير الضحك في سورية، ولم تكن كل تلك الجمل تستفز الجلادين إلى الحد الذي يريده المحققون من الوحشية في التعذيب. عندما كانوا يريدون أن يتفتت لحم المسجون، وتتكسر عظامه، كانوا يقولون للجلاد: «هاد ضد الرئيس»، فكانت عينا الجلاد تتقدان، ويحتقن وجهه، فيصرخ ويلطم: «ضد الرئيس؟!»، وينصبّ الجحيم على رأس هذا المسجون.

سرياليات 4

من استلم مادة الفطور من السجان فوجئ بكمية اللبنة الناقصة كثيرًا عن المعتاد، وعندما وزعها على المهاجع شرح لهم أن الكمية بالأصل قليلة، كي لا يتهموه بسوء التوزيع. التحليلات والقراءات السياسية لنقص كمية اللَبَنة في هذا اليوم:

التحليل رقم 1: هذه الكمية من اللبنة مؤشر واضح جدًا على عمق الأزمة الاقتصادية التي يعيشها النظام، وهذا يعني من وجهة نظر ماركسية أن الحالة المعيشية للمواطنين تسوء أكثر فأكثر، وبما أن التراكم الكمي لا بد من أنه سيؤدي إلى انتقال نوعي، فهذا يعني أن الانفجار أصبح على الأبواب.

التحليل رقم 2: نقص كمية اللبنة مؤشر واضح على أن هناك توجهًا جديدًا للتعامل مع المعتقلين، وهو الضغط عليهم، وربما أكثر.. يا شباب لا أزمة ولا شي، فالنظام مرتاح ولا يهمه إن مات المسجونون كلهم.

التحليل رقم 3: كمية اللبنة الناقصة، ما يعني جسّ نبض من النظام للحالة النفسية للمسجونين.

تحليل رقم 4: شو دخل اللبنة بالنظام؟ الموضوع هو وجود مشكلات بين مدير السجن ومساعد المطبخ.

التحليل رقم 5: القصعة التي راحت إلى جناح بعث العراق فيها كمية مضاعفة من اللبنة، وأنا رأيتها بعيني، هذا يعني أن النظام «رح ينفتح ع اليمين ويتصالح معه».

التحليل رقم 6: كلامكم كله غلط، وهناك تراجع للخط الإصلاحي داخل النظام، وتقدّم لخط العسكر والاستخبارات.

التحليل رقم 7: لا بد أن دفعة جديدة وصلت إلى السجن، وبما أن مخصصات هذه الدفعة من الطعام لم تصرف بعد، فقد أخذوا من حصصنا، ولهذا نقصت الكمية.

استقر الجناح على أن الأرجح هو قدوم مسجونين جدد، وأكدت مصادر مطلعة أن عدد المسجونين الجدد هو 127 مسجونًا، وبدأت الاستعدادات لتوزيع القادمين الجدد على المهاجع. ثم بعد ساعات يُحل اللغز، عندما يخبرنا سجان له قريب معتقل معنا أن أحد عمال البلدية كان يمشي مغمضًا عينيه، فوقع في «بْلَوْ» اللبنة، ولأن ثياب عامل البلدية متسخة ومشبعة بالمازوت، فقد كان من الصعب إعادة توزيع اللبنة، وهكذا وزعت نصف الكمية فقط.

التهمة حلم

اعتُقل أحمد وعمره ستة عشر عامًا، وعندما التقيت به في سجن صيدنايا كان عمره خمسة وعشرين عامًا، وعندما سألته عن الرواية التي تُحكى عنه أنه مسجون بسبب حلم، ضحك وقال: "نعم".

كان أحمد في الصف الأول الثانوي، عندما اقتحمت عناصر المخابرات بيتهم في أحد أحياء مدينة دمشق، كما لو أنها تقتحم موقعًا تتحصن به كتيبة عسكرية: "الله وكيلك ما بنسى هديك اللحظة بحياتي. أكثر من عشرين عنصرًا، بأسلحتهم المشرعة وصياحهم، اقتحموا البيت بكل وحشية. يومها، اعتقلوا أبي وما يزال منظرهم، وهم يركلونه ويضربونه بأعقاب بنادقهم وأرجلهم، يبكيني كلما تذكرته. كان يتضرع إليهم أن يتوقفوا، ولكنهم كانوا يزدادون ضراوة ووحشية.

غاب أبي ولم نعد نعرف عنه شيئًا، وفي تدمر أخبرني أحدهم أنهم أعدموه. أما قصة اعتقالي أنا، فقد حدثت بعد اعتقال أبي بأشهر. أنا أكبر أخوتي، وبعد اعتقال أبي تركت المدرسة، ولم أكن قادرًا على نسيان صورة أبي النازف وصراخه وتوسله. في أحد الأيام حلمت بأني أغتال حافظ الأسد، ويومها زارني بعض زملائي في المدرسة، وببساطة أخبرتهم بما حلمت، ويبدو أن أحدهم أخبر جهة ما، وهكذا وبمثل الوحشية الأولى اقتحموا بيتنا واعتقلوني، وها أنا أمامك بعد تسع سنوات، معتقل بسبب ذاك الحلم".

حسين مروة ومهدي عامل

ذهب عامر إلى الزيارة، ولكنه تأخر في العودة. عادة، لا تستغرق الزيارة أكثر من نصف ساعة. أما عامر، فقد مضى على ذهابه ما يزيد على ساعة. فجأة، يقترب مساعد الانضباط ومعه عشرة من المسجونين المدججين بكرابيجهم من باب جناحنا، ويصرخ بصوت عال: «ابعتولي رئيس الجناح فورًا»، ويتجه رئيس الجناح إلى المساعد، ونستنفر جميعًا فهناك مشكلة ما. عند باب الجناح، يقف المساعد بكامل غطرسته وبوجه متجهم يطلب من رئيس الجناح أن يبلغ حسين مروة ومهدي عامل بأن عليهما الاستعداد لعقوبة الحبس الانفرادي في الزنزانة. عندما يخبره رئيس الجناح بأن هذين الاسمين غير موجودين في جناحنا، يصرخ مهددًا:

«بلا أكل خرا.. معك ثلاث دقائق فقط. طلّعهن أحسن ما فوت طلّعهن أنا». بعد حوار طويل مع المساعد، اتضحت لنا المشكلة وعرفنا أنه تم ضبط الرسالة التي حاول عامر تهريبها في الزيارة، فأنهوا زيارته فورًا وأنزلوه إلى الزنزانة، وأما الرسالة فقد سُلّمت إلى مدير السجن. قرأ مدير السجن، وهو «المقدم العظيم!»، في الرسالة: «كتير ضروري تجيبوا كتب لمهدي عامل وحسين مروة»، فاستنتج بعبقريته الأمنية أن هذه الضرورة لا تعني كتبًا، بل شيئًا آخر، وعليه فقد أمر بإحضارهما لفك الشيفرة الغامضة.

أستاذ الخط

في السجن، نحاول أن نتعلم كل شيء، لا لأننا هواة علم، بل لأننا ببساطة نحتاج إلى ما يبدد ثقل الوقت الطويل. أوصى أبو نسرين في زيارته على ريشات للتخطيط، وأعلن أنه مستعد لتدريب من يريد تعلم الخط العربي. كنت ممن يسهرون حتى وقت متأخر، ولهذا فإن أغلب الدورات التي غالبًا ما تقام صباحًا بعد الفطور كانت تفوتني، فقلت له: «إنني أرغب في تعلم الخط العربي»، فقال لي: «يمكنك إذًا أن تأتي إلى مهجعي في العاشرة صباحًا لتنضم إلى دورة الخط»، وعندما سألته: «من سيكون معي في الدورة؟»، قال: «لا أحد». لأنني الطالب الوحيد في الدورة، فقد أقنعت أبا نسرين بأن يجعل توقيتها الثانية عشر ظهرًا؛ لأنني لا أستيقظ باكرًا، فوافق.

كنت أستيقظ قبل موعد الدورة بقليل، وأغسل وجهي وأشرب ما أجده، ثم أحمل دفتري وقلمي وأتجه إلى مهجع أبي نسرين. في مثل هذا الوقت يكون أبو نسرين قد انتهى من رياضته الصباحية، وأخذ دوشه وأفطر، وقام بسلسلة زيارات لمهاجع أخرى، ثم عاد إلى مهجعه، وجهز إبريق زهورات. ما إن يراني داخلًا وفي يدي دفتري، حتى يفسح لي مجالًا على فراشه، ويسألني كل يوم: «شو الخط اللي كتبناه مبارح؟»، فأجيبه، ليسألني سؤاله الثاني: «كتبت الوظيفة؟». لم يمتدح أبو نسرين، ولو مرة واحدة، محاولاتي في تعلم أشكال الخط العربي، وفي كل مرة يقول لي جملته التي لا تتغير: «بدك تضل حمار. هلأ هيك أنا عم علمك؟». أهز رأسي ضاحكًا، ونبدأ درسنا الجديد، وفي نهاية الدرس وعلى صفحة جديدة، يكتب لي سطرًا أو سطرين من خط جديد، لأكتب على منوالهما.

كنت أكتب وظيفتي ليلًا، ولكن في تلك الليلة جاء مروان وصايل ومازن وإسماعيل لزيارتنا، وبقينا نلعب «مورتو» حتى الرابعة صباحًا، والمورتو لعبة لأربعة أشخاص بورق اللعب، وهي اللعبة الأهم لنا في السجن. عندما استيقظت صباحًا للذهاب إلى دورة الخط، تذكرت أنني لم أكتب وظيفتي، فقررت أن أقدم له ما كتبه لي، كي أنسخ على منواله على أنه وظيفتي. تناول أبو نسرين الورقة التي كتبها لي ونظر إليها مليًا، ثم نظر إلي من فوق نظاراته، وقال: «بدك تضل حمار، أنا هيك عم علمك؟». عندما ضحكت وأخبرته أن ما بيده هو خطه، أعاد النظر إليها مرة أخرى، وببساطة شديدة قال: «والله صحيح، بس مع هاد اللي كاتب هي الورقة حمار».

فجيعة

عاد يزيد من زيارته صامتًا، والأسئلة التي انهالت عليه كلها لم تخرجه عن صمته، وكان وجهه محتقنًا، ودمع متحجّر يلتصق بعينيه. بعد أيام أخبر أن زوجته جاءت للزيارة، وكان قد مضى على اعتقاله تسع سنوات، وأنه وقف حائرًا أمام الشبك الفاصل بين الزائرين والمزار، فهو لم يتعرف إلى أحد ممّن يقفون في الجهة الأخرى، وعندما صاح السجان باسمه اقترب نحو امرأة لم يعرفها، وكي لا يُربك المرأة التي تقف أمامه، اندفع يسألها بشوق ولهفة: "كيفك يا أمي وكيفو أبي وخواتي وكيفها مرتي والأولاد". واستمرّت أسئلته تتدافع، والمرأة التي أمامه تبكي وتبكي. عندما استطاعت أن تتكلم، قالت وهي تشهق وتغص بدمعها: "ماعرفتني!؟. أنا مرتك".

إخلاء سبيل

بعد عشر سنوات، قرروا أن يفرجوا عني وغادرت سجن صيدنايا صباح يوم 25- 11- 1997، وكان يومًا خريفيًا مشمسًا. أخرجني الشرطي من الجناح، بعد أن ودعت من عشت معهم تفاصيل تلك السنوات كلها، ورافقتني تظاهرة حاشدة حتى باب الجناح. كانت التوصيات المازحة والضحكات والتعليقات تتطاير، وعندما أغلق الشرطي الباب الخارجي خيم الصمت فجأة. لقد انفصلنا، وبقوا في قبر الصفيح والإسمنت وأنا أذهب إلى قبر آخر لا يختلف، في قهره وقسوته، ولكنه أقرب إلى الحرية. قبل أن يختفي عني باب الجناح التفت إليهم التفاتتي الأخيرة، وكانوا ما يزالون متجمعين وراء القضبان المعدنية، فأوشكت أن أبكي وأنا أتمعن في الوجوه التي ما تزال تلتصق بقضبان الباب، وعندما استحثني الشرطي لوحت لهم تلويحتي الأخيرة وتبعته.

أن تغادر سجن صيدنايا لا يعني أنك ستخرج إلى الحرية حتمًا، فأمامك محطة أخرى قد تطول وتنغلق عليك، فتعود مرة أخرى إلى سجن صيدنايا أو سجن آخر. لم يطل الأمر في سجن التحقيق العسكري. ساعتان فقط، ثم نقلت بعدها إلى فرع فلسطين، حيث سيتخذ القرار الأخير. بقيت في فرع فلسطين حوالى الشهر، وفي كل صباح أنتظر أن أسمع اسمي، وعندما يمضي الوقت من دون ذلك، أجلس في المكان المخصص لي وأعود لأتخيل أنني ما أزال في سجن صيدنايا. أخيرًا، قُرئ اسمي، وكان صباح اليوم السابع والعشرين لي في فرع فلسطين، وأخذني السجان إلى غرفة من غرف إدارة السجن، وهناك طلب مني الانتظار.

أجلس في الغرفة بلا قيد في يدي، وبلا طميشة تغلق عيني، وأنتظر. تفتح الغرفة بين الفينة والأخرى، وهي غرفة لأحد ما، ففيها سرير عسكري وطاولة عليها جهاز هاتف وأوراق، ووراءها كرسي، وفي زاويتها مشجب علقت عليه منشفة زرقاء متسخة وبيجامة رياضة. بعد خمس ساعات، طلب مني أحد الأشخاص أن أتبعه، فتبعته. في غرفة واسعة باذخة الأثاث، سأقف؛ منتظرًا حتى ينتهي الرجل الجالس وراء مكتبه من قراءة ما بيده، ثم ينظر إلي بوجهه الحليق، ليسألني إن كنت قد غيرت قناعاتي وأصبحت مواطنًا صالحًا، فأصمت.

يُلحّ على سماع جوابي، وعندما أقول له أن الحياة هي التي تغير القناعات وليس السجن، يتأفف ثم يضغط على زر أمامه، فيُفتح الباب ليدخل أحد ما: «خدو خليه ينقلع.. العمى هدول جماعة حزب العمل كلهن فلاسفة»، ثم توجه إلي: «بنصحك بلالك السياسة.. والله منجيبك من تحت سابع أرض. روح انقلع». تبعت الشخص حتى الساحة الداخلية للفرع، وهناك أشار إلى البوابة التي سأخرج منها، وعاد. وقفت مثل أبله، فأنا لم أفهم جيدًا ماذا يتوجب علي فعله. هل أتجه إلى حيث أشار وأخرج بكل بساطة؟ هل سيسمح لي ذلك العنصر المدجج بسلاحه أن أخرج من دون أي ورقة أو أمر من أحد.

كان يجب أن أوقف ترددي وأتحرك سريعًا، فربما شك أحد ما في وقفتي البلهاء وأعادني إلى السجن، وربما غيروا قرارهم بعد قليل. يجب أن أغادر بأسرع وقت. اتجهت بخطواتي الحذرة الخائفة إلى البوابة المعدنية السوداء التي تغلق مدخل الفرع كله؛ تاركةً فسحة لمرور الأفراد على أحد جانبيها، فاستنفرت الطاقة التي يختزنها

جسدي كلها، مشيت، متعمدًا عدم النظر إلى الحارس المدجج، ومتجهًا إلى حيث يخرج الأفراد. خمسة عشر مترًا فقط تفصلني عن الحياة، خمسة عشر مترًا وأغادر قبرًا ابتلعني عشر سنوات، وكانت خطواتي مرتبكة، وكنت أشعر بثقل هائل في قدمي.

البوابة تقترب وهاجس واحد يتلبسني، فهذا المدجج بسلاحه سيصرخ بي بعد لحظة أن أتوقف، وربما لن يتكلم فرصاصة واحدة تكفي. البوابة على بعد خطوات، وعيناي ثابتتان على الفرجة التي سأخرج منها، ولكن حواسي كلها مستنفرة إلى حيث يقف ذاك المدجج بصمته وعبوسه وسلاحه. في تلك اللحظة، أدار وجهه إلى اتجاه أحد ما صرخ باسمه. كان الله رحيمًا، فأنا لست في حاجة إلى أكثر من عشر الثانية كي أطير؛ عابرًا بوابة الجحيم.

لم أفكر ولو للحظة إلى أين سأتجه، ولم أتوقف لأتبين طريقي. كنت أريد فقط أن أبتعد بأسرع ما يمكن عن الغول الذي قد تسحبني يداه مرة أخرى، فلم أكن أمشي، بل كنت أطير ربما ولا أشعر أن قدماي تلامسان الأرض. على الأتوستراد الذي يمر إلى جانب فندق الكارلتون، توقفت، وأشّرت إلى أول حافلة نقل رأيتها، ولم تكد تتوقف حتى انزلقت بداخلها بسرعة، وما إن تحركت الحافلة مبتعدة حتى تنفست الصعداء. تحسست جسدي، ثم ألقيت نظرة على من يشاركونني الحافلة، وبدأت أشعر بالأمان، وأخيرًا انتبهت إلى أنني أصبحت حرًا، فابتسمت.

لم أكن أعرف إلى أين تتجه الحافلة، وخفت أن تكون متجهة إلى خارج المدينة، فهي تعبر طريقًا عريضًا لا يوحي أبدًا بأنه ذاهب إلى داخل المدينة، فسألت من جلست إلى جانبه: «لوين رايح هاد

الميكرو؟»، فنظر إلي باستغراب وسألني: «إنت لوين رايح؟». كان سؤاله مفاجئًا، وعندما قلت له: «لا أعرف»، فتح عينيه دهشةً، ثم قال مستنكرًا: «في حدا ما بيعرف لوين رايح!؟»، فضحكت، وقلت: «إي فيه، أنا ما بعرف لوين رايح»، فصمت قليلًا، ولا أدري في ماذا فكر، ولكنه التفت إلي قائلًا: «هاد الميكرو رايح ع اليرموك».

أصبح الأمر أكثر صعوبة عندي، فأنا لا أعرف اليرموك، وأحياء دمشق التي كنت أعرفها لم يكن منها حي اسمه اليرموك، فكان علي أن أسأل مرة أخرى، ولكن كي لا أبدو جاهلًا بكل شيء، فقد حاولت أن أوحي له بأنني أعرف شيئًا ما، فسألته: «اليرموك قريب من الصالحية؟»، فنفخ الرجل أنفاسه متبرمًا، ثم قال: «يا أخي! شو جاب اليرموك ع الصالحية؟!. إنت فهمني شو بدك، والله لساعدك».

شرحت للرجل باختصار أنني، عندما أوقفت هذا الميكرو، لم أكن أريد سوى الابتعاد عن فرع فلسطين، ولذلك لم أنتبه إلى أين سيتجه، وطال الحديث عن السجن وسنواته، ومن أين أنا وكيف سأسافر إلى اللاذقية. أخيرًا، قرر الرجل أن يدلني إلى مكان نزولي، وهناك سأركب حافلة كتب عليها «كراجات»، وفي نهاية الخط سأجد تجمع البولمانات، وفجأة تدخل السائق: «لا تهكل هم أخي. إنت بس قلو لسائق الخط الثاني ما ينزلك إلا بالبولمانات». بدأت المناقشة تتسع وشارك فيها بعض الركاب وضحكت، عندما استنتجت أن كل من الميكرو كانوا يتابعون حوارنا، أنا والرجل الذي إلى جانبي.

أنزلني السائق في شارع مزدحم، وعندما مددت يدي بالأجرة رفض. ليس هو وحده من رفض، بل الركاب كلهم أعلنوا رفضهم، فضحكت. «الله معك يا أخي، الحمد لله على سلامتك، انتبه لا تنسى

اسم الميكرو»، وتمنيات تتطاير من ركاب الحافلة. ابتلعني الزحام وغصت في لجة البشر الذاهبين في كل الاتجاهات، وكنت أختبئ بينهم وأحتمي بهم، أخلع سجني وأرميه تحت خطواتهم الذاهلة المسرعة. عند بائع دخان توقفت، واشتريت علبة وولاعة، وبمتعة لا توصف استندت إلى حائط بناء، وأخرجت سيجارة وأشعلتها ورحت أستمتع بمراقبة الحياة، وهي تغرقني بصخبها.

2014 – 11 – 25

الطائرة تقترب من مدرج مطار استوكهولم أرلاندا، وما يزال أوس ساهما، وعندما ارتطمت عجلات الطائرة بأرض المدرج، نظر إلي وهو يريد أن يعرف، من تعابير وجهي، إن كان كل شيء على مايرام أم إن هناك ما يبعث على الخوف. أبتسم له ليطمئن، ولكن ابتسامتي لا تفلح في تبديد ذلك القلق العميق الذي سكن عينيه منذ أن غادر سورية. يحكم أصابع يده الصغيرة على كيس فارغ من النايلون، ويحمل شعار الأمم المتحدة، فهذا الكيس هو وسيلة التعارف بيننا وبين موظف من دائرة الهجرة كان ينتظرنا في المطار، وعندما أعطانا إياه موظف اللاجئين في مطار إسطنبول، بعد أن أنهى إجراءات سفرنا وأوصلنا إلى البوابة التي سننتظر فيها إقلاع طائرتنا، نبهنا بشدة إلى ضرورة المحافظة عليه: "احرصا على هذا الكيس. سيتعرف موظف اللجوء الذي ينتظركم في استوكهولم عليكم من خلاله".

منذ تلك اللحظة، وأوس يطبق عليه بأصابعه، ويمسك إحدى يدي بإحدى يديه وبيده الأخرى يطبق على الكيس الأبيض الذي احتلت دائرة زرقاء تمثل شعار الأمم المتحدة منتصفه. يشد أوس بكلتا يديه على ما تبقى له من هذا العالم: أنا والكيس الذي هو الآن جواز عبورنا إلى الأرض الجديدة. لم أستطع، منذ غادر أوس سورية، أن أنتزع ذلك القلق العميق منه، فهو لم يعد طفلًا يمكن للقليل من الدهشة أن تشغله عن العالم، وأحاول دائمًا أن أفعل شيئًا ما يعيده إلى طفولته، ولكنه سرعان ما ينسحب، ويجلس صامتًا.

لم أستطع أن أفعل الكثير من أجل طفل انتزع من تفاصيل عالمه الأليف: سريره وألعابه وحارته الصغيرة وطرقاتها الأليفة المفضية إلى جهاته التي يعرفها وأشخاصها الذين يعرفهم وأصوات الباعة وضجيج الطلبة الذاهبين الى مدرستهم؛ محملين بحقائب ثقيلة تنوء أكتافهم الصغيرة تحتها. انتزع من هذه التفاصيل كلها، والألفة وغيرها، ليزج فجأة في مواجهة عالم واسع وغريب، بوجوه لايعرفها، ولغات لا يفهمها، وأماكن غريبة، وغد لا يعرف عنه شيئًا. أي قسوة هذه؟. عندما اقتلع أوس من تفاصيله كلها، ورحل عنها إلى المجهول، كان عمره عشر سنوات، وها هو بعد سنتين من التشرد يصل إلى البلد الذي حاولت أن أطمئنه إلى أنه سيكون مكانًا آمنًا وسعيدًا، وأنه سيكون وطنه الجديد.

كان الشخص الذي انتظرنا في مطار استوكهولم يستحثنا كي نسرع، وسيتوجب عليه حجز تذكرتين لنا لكي نصل إلى محطتنا الأخيرة. أجرّ حقيبتين كبيرتين، وأوس يمسك بي بقوة، وعندما تأففت من يده الممسكة بيدي، وتعيق حركتي، أنا الذي أحاول سحب الحقائب والانتباه الى ممرات المطار، ومتابعة الرجل الذي يمشي بسرعة أمامنا وسط حشد المسافرين، نظر إليّ متوسلًا: "بس أنا خايف"، ثم أحكم أصابعه فوق كفي، وحاولت طمأنته، وواصلت جرّ حقائبنا، وكانت يداه تواصلان إطباقهما على يدي وعلى الكيس.

يناولني موظف الهجرة تذكرتي ركوب الطائرة إلى محطتنا الأخيرة، ثم يوصينا مرة أخرى أن نحافظ على الكيس، فثمة من ينتظرنا في مطار كالمار، ويغادر. يعاود أوس إطباق أصابعه فوق الكيس الهوية، ونتجه إلى البوابة المخصصة لرحلتنا القادمة،

ولكنني الآن من دون حقائب، ويمكنني أن أمسك يده الصغيرة وأشد عليها قليلًا، ليستعيد إحساسه بالأمان.

لم تكن كالمار محطتنا الأخيرة، وكان ماتس وكاترينا ينتظراننا في بهو المطار الصغير، ثم ركبنا سيارتهما بعد أن وضعنا الحقائب فيها. قال ماتس، قبل أن ينطلق بسيارته: "سنحتاج إلى ساعة ونصف كي نصل إلى البيت المخصص لكما، فهل تريدان شيئًا قبل أن ننطلق؟". يغفو أوس إلى جانبي، ولم تعد أصابعه تمسك بشيء، فالكيس الذي انتهت مهمته يرقد في إحدى الحقائب ولم أرمه. قلت لأوس وأنا أدس الكيس في جيب المحفظة: "سأحتفظ لك به".

السيارة تنساب في العتمة بصمت. أنظر من خلال الزجاج الأمامي للسيارة، ومصابيح السيارة تضيء الطريق بإشاراته الواضحة، وعلى جانبي الطريق تصطف الأشجار في تشابه مذهل، ولكأنها شجرة واحدة تتكرر إلى ما لا نهاية، فلا شيء إلا غابة طويلة طويلة لا تنتهي، وهي تحيط بطريق رسمت معالمه بعناية. صمت وألف سؤال. عندما وصلنا إلى أول المدينة التي سنقيم فيها، نبهني ماتس قائلًا: "هذه هي فيمربي، هنا ستعيشون، إنها مدينة صغيرة ولطيفة".

أنظر من زجاج السيارة إلى المدينة النائمة، ولا شيء يتحرك فيها، لا سيارات ولا مشاة، فقط شوارع موحشة مضاءة بمصابيح ترسل ضوءًا أصفرًا خافتًا. تنعطف السيارة لتدخل تجمعًا سكنيًا، ثم تتوقف. أوقظ أوس وأنزل الحقائب، بينما يفتح ماتس باب الشقة الصغيرة التي خصصت لنا، ويوضح لي بعض المعلومات المتعلقة بالبيت، ثم يودعنا وكاترينا، ويغادران.

نستكشف، أنا وأوس، بيتنا الجديد العاري: غرفة نوم بسريرين وصالون عارٍ تمامًا ولا يحتوي أي قطعة أثاث، وفي المطبخ طاولة خشبية حولها أربعة كراسي خشبية. نخرج إلى الشرفة الصغيرة، فتلسعنا برودة خريف السويد القارسة، ونعود مسرعين، ونتحدث قليلًا، ثم نقرر تأجيل فتح حقائبنا إلى الغد. يندس أوس في فراشه، وأراقب وجهه القلق ونظراته الساهمة، وعندما يغفو أبكي.

الغلاف الأخير

يوم 25 – 11 – 2014، عند الساعة الواحدة ظهرًا. أنظر من نافذة الطائرة التي باشرت الهبوط، لتحطّ في مطار آرلندا- استوكهولم، إلى ما يظهر فيها من معالم البلد الذي قصدته لاجئًا، وكان ابني بسنواته الاثنتي عشرة يغفو إلى جانبي، وعندما حاولت إيقاظه انتفض وفتح عينيه خائفًا وسألني: «وين نحنا بابا؟».

المصادفة التي طالما استعدتها، فأبكتني هي أنه في اليوم نفسه، ولكن قبل سبعة وعشرين عامًا، أي يوم 25 – 11 – 1987، كان الصباح صباحًا، كما كان ينبغي للصباحات أن تكون، وكنا نتناول فطورنا أمي وأنا، عندما اقتحم عناصر المخابرات العسكرية بيتنا البسيط، ليعتقلوني ويخفوني أكثر من عشر سنوات. يومها، توجهت أمي إلى ذلك الضابط وسألته، بلهفة وتضرّع: "لوين آخدينو؟". ما بين سؤال أمي وسؤال ابني، حكاية وطن موجعة، حتى آخر حدود الوجع.

هذا الكتاب

في السجن لا حياة، فأنت مجبر على اختراعها، بل أنت مطالب بأن تمنح ذاكرتك ما يمكّنها اختراع الحياة أيضًا. نعم؛ في السجن نخترع الحياة ونصوغها، كما تستطيع ذاكرتنا أن تفعل، نخترع شخوصًا ونحبهم أو نكرههم، وربما نقتلهم، ونخترع مطارح ومعارك ننتصر فيها أو نهزم، ونخترع نساءً لكي نبكي حنينًا إليهن، فنضاجعهن كما لو أننا نصلي، ونكتئب إن هجرتنا، وربما نحاول الانتحار.

في السجن، من لا يتقن اختراع الحياة، سيسحبه اليأس إلى لجّة الموت. في السجن، في هذا المضيف الذي يفصل بين موت وحياة، نتعلق بذاكرتنا وكأنها طوف نجاة، وحدهم من سُجنوا ومن يسجنون، لآماد طويلة وفي شروط شديدة القسوة والبشاعة والحرمان، كما هي حال السجون السورية، يدركون جيدًا معنى الذاكرة والحاجة إليها وحقيقتهما. السنوات التي تتناسخ تترى، تجعل من الذاكرة ذاكرةً عطشى، فتحيلها ذاكرةً بشقفها اليبس عميقًا، وذاكرةً تجهد لصون آخر عصارة فيها، ثم كي لا تموت فنموت نحن، نلهث وراء ما يمكن أن يسقيها، ولو قليلًا.

بسام يوسف

كاتب سوري من مواليد 1961، يحمل إجازة في العلوم الطبيعية، الكيمياء الحيوية من جامعة تشرين في اللاذقية 1985، ناشط سياسي، أعتقل مدة عشر سنوات من 1987 إلى 1997 لانتمائه إلى حزب العمل الشيوعي، رئيس تحرير جريدة «كلنا سوريون»، مقيم في السويد منذ 2015.

السعر: 8 دولارات